تفسير التاريخ

تأليف

عبد الحميد صديقي

ترجمة

الدكتور كاظم الجوادي

دار القلم

تفسير التاريخ

الطبعة الأولى

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

دار القلم
الكويت - شارع السور - عمارة السور ص.ب ٢٠١٤٦١
هاتف ٤٢٥١٦٠ - برقياً : توزيمكو

تفسير التاريخ

تأليف

عبد الحميد صديقي

ترجمة

الدكتور كاظم الجوادي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

حين ظهرت الطبعة العربية الأولى من هذا الكتاب في أوائل عام ١٩٦٩ كان المؤلف الأستاذ عبدالحميد صدّيقي قد أعد الطبعة الثانية المنقحة والمزيدة من الأصل الانكليزي ، فظهرت عام ١٩٦٩ أيضاً ، وفيها تنقيحات و (خاتمة) في نهاية الكتاب لم تكن في الطبعة الأولى .

واليوم وبعد أن مضت عشر سنوات على ظهور الطبعة العربية الأولى والطبعة الانكليزية الثانية المنقحة ، أتقدم بالطبعة العربية الثانية بعد أن أضفت إليها (الخاتمة) وبعد أن راجعت الترجمة مراجعة شاملة توخيت فيها تعديل ما عدّله المؤلف في طبعته الانكليزية الثانية وتوضيح بعض العبارات وتقويم أسلوبها .

والله أسأل أن يمنّ عليّ وعلى المؤلف بقبول العمل وأن ينفع به . وله الحمد أولاً وآخراً .

ذو القعدة ١٣٩٩

تشرين الأول ١٩٧٩

شكر

تفضل الأستاذ الدكتور محمود الأمين بشرح غوامض تاريخية وردت في بعض الأماكن من الكتاب .

وتفضل الأخ الدكتور ياسين خليل بمراجعة فصل (فلسفة هيغل للتاريخ) وأبدى ملاحظات قيّمة حول بعض المصطلحات الفلسفية في الترجمة ، وشرح بعض الأمور الغامضة ، يجدها القارىء في حاشية ذلك الفصل مع حرفي (ي. خ.) .

لذا أتقدم إليهما بالشكر الجزيل .

المترجم

إهداء الطبعة الإنكليزية الثانية

إلى

خالد أحمد صدّيقي

الذي حرمتني وفاته وحرمت كثيرين مثلي

من بركات صديق وفيّ

بين يدي الطبعة الثانية من الكتاب

تأتي هذه الطبعة الثانية بعد أن مضى وقت طويل جداً على ظهور الطبعة الأولى ، وليس في ذلك ما هو غير مألوف أو غير متوقع ، فهذا الكتاب يبحث في مشكلة التفسير الفلسفي ، فلا يمكن أن يتوقع له رواج عاجل. ولكنّ ما يدعو إلى الرضى ، أن هذا الكتاب بما عالج وما أغفل ، قد أثار اهتماماً في بعض الأوساط . فقد قررته بعض الجامعات كتاباً دراسياً وأوصت جامعات أخرى باتخاذه مصدراً إضافياً لتلاميذ الدراسات العليا في اختصاص التاريخ. وقد وجد فيه تلاميذ الفلسفة والدراسات الإسلامية كتاباً مساعداً وطلبوا إعادة طبعه . كذلك ترجم هذا الكتاب إلى العربية ونشر في الكويت . وقد راجعت الكتاب وبذلت غاية الجهد لتحسين طباعته . وإنني لأشكر الدكتور عابد أحمد علي ، عميد الدراسات الإسلامية في الجامعة الهندسية بلاهور سابقاً على ما أبداه من توجيه ، والسيد عطا حسين على تصحيحه مسودات الطبع ، وبشير أحمد خان على نشره الكتاب باللغة الانكليزية .

عبد الحميد صديقي

حزيران ١٩٦٩

بين يدي الكتاب

لقد كتبت هـــذه المقالات في أوقات مختلفة من السنتين الماضيتين ، وكلها كانت قـد نشرت في بعض الصحف الشهيرة في باكستان ، سوى المقالة الثانية .

إن كل مقاله من هذه المقالات مستقلة بنفسها ، ولست أدّعي أنها تكوّن باجتماعها مع بعضها كتاباً ، إلا أن فيها شيئاً من اتحاد وجهة النظر من حيث أنها جميعاً تبحث في جانب واحـــد من المعرفة الإنسانية ، ألا وهو فلسفة التاريخ .

إنني مدين بالشكر الجزيل لمحرري وناشري مجلتي (إقبال) و(الأدب الإسلامي) لتفضلهم بالسماح بنشر هـــذه المقالات ، وأخص محرري مجلة (إقبال) بلاهور الذين يستحقون مني شكراً خاصاً إذ قدموا لي الكثير من المقترحات القيمة .

وأنا مدين بالشكر أيضاً لمولانا أبي الأعلى المودودي، ومولانا أبي الخير المودودي ، ومولانا نعيم صدّيقي ، والدكتور وحيد قريشي والأستاذ خورشيد أحمد، وأخي افتخار رسول لما قدموه من إرشاد ومعونة ومساعدة .

عبد الحميد صديقي

آب ١٩٥٥

تعـــال

بقلب يراقب

ويتـــلقى

المقدّمة

يرجع أصل فلسفة التاريخ إلى رغبة البشر في أن يجدوا الجواب الشافي لسؤالين جوهريين هما : لماذا حدث ؟ وكيف حدث ؟

ولقد بدأ الإنسان في مرحلة مبكرة جداً من ارتقائه في محاربة فكرة اعتبار المصادفة قوة محركة في الكون ، واجتهد كثيراً لكي يكتشف القانون المسيّر الذي يدلّ هذا الكون على وجوده دلالة تدركها الحواس .

ولقد كان الذين سجلوا حوادث الماضي يشعرون بهذه الرغبة ، وحاولوا أن يشبعوها بأن انتقلوا من مجرّد تسجيل الحوادث تسجيلاً بسيطاً إلى أسلوب تاريخي عملي بنوا فيه كل حادثة على حادثة أخرى ، وشرحوا كل واقعة بواقعة أخرى ، ووصفوا الواحدة بدلالة الأخرى .

ولكن الإنسان لا يمكن أن يقنع بهذا أيضاً إذ لم يوضح له هذا الأسلوب إلا ظواهر منفصلة ، أمّا ما يريده فهو أن يعرف

« قصة الكون » التي لم تكن هذه الأحداث إلا بعض أجزائها .

وقبل أن تتضح الفكرة بزمن طويل كان المعتقد أن كل وجود البشر عملية واحــدة لا تعتبر فيها الحوادث الواضحة المعينة التي هي موضوع التاريــخ المكتوب سوى مظاهر عرضية . وهكذا كان الانتقال من الكتابة التاريخية المعروفة في سرد الحوادث سرداً قصصياً مع ذكر زمانها ومكانها الثابتين إلى التفسير الفلسفي للتاريخ الذي يفسر هذه الحوادث تفسيراً منطقياً، ويحاول ـ فضلاً عن ذلك ـ أن يكتشف القانون الذي « ينظّم هــذه الحوادث ويحاول أن يجــد في حدوثها معنى يعطي لحوادث الماضي تسلسلاً منطقياً ، وينير الحاضر، ويضيء بعض جوانب المستقبل »[١] .

إن فلسفة التاريخ يجب أن تبدأ من فكرة أن التاريخ يحكمه قانون ما ، « حتى ولو كانت المصادفة هي هــذا القانون . ولكن إذا كان يجب اعتبار المصادفة قانون التاريخ فإن فلسفته ستنتهي حيث بدأت ، إذ أنه إذا صح في هذه الفلسفة أن أمور البشر تخضع للحوادث العمياء التي لا يقيّدها نظام فلن يكون لهــذه الفلسفة شيء آخر تضيفه إلى ذلك »[٢] .

والأمر الثاني أن الحياة البشرية ذات معنى ، ولذلك نرى ان

---

(١) Max Nardau, The Interpretation of History, P.44 .

(٢) المصدر نفسه .

أي إنسان سويّ إذا أراد أن يـأتي عملا شعوريا فكّر قليلا قبل أن يقوم به ووضع نصب عينه غاية معينة. ولكن يجب أن لا نعتبر هذا الفرض يعني أن الحوادث التي منها يتكون التاريخ، ذلك المركب الجميل والمعقد في نفس الوقت، كلها حوادث تمّت وفقاً لغاية قد عُيّنت من قبل. « إن سلسلة أحداث العالم أو حركة الكون في الزمن مجردة من الغاية حتماً إذا عنينا بالغاية هدفاً معروفاً من قبل — هو مصير ثابت بعيد تسير المخلوقات كلها نحوه. إن اعتبار أحداث العالم ذات غاية بهذا المعنى معناه أننا نسلبها اصالتها أو صفتها الخلاّقة». إذ ليس في التاريخ ما يسوّغ الزعم بأن عقلا ذكيا ساميا خارقا يستخدم الإنسانية الساذجة ليحقق ما يريد. فهذا الكون كيان لم ينته صُنعُه، فهو دائما في توسّع وامتداد. وبذلك يكوّن مجالاً محفّزاً لنشاط الإنسان نشاطاً حرّاً خلاقاً يستطيع به أن يسيطر على العالم المادي من جهة ويبلغ بقواه الفردية درجة الكمال من جهة أخرى. « فهذا الكون كون نام قابل للاتساع والامتداد إلى مدى غير محدود. إذ ربما يكمن في أعماق كيانه حلم مولد جديد. ان الكون ذو غاية، بمعنى واحد فقط هو المعنى الذي يدل على أنه انتخابي بطبيعته وأن طريقة إلى الإتيان بشيء جديد هو العمل الدائب على حفظ الماضي وإضافة شيء إليه »[1].

---

(١) Muhammad Iqbal, The Reconstruction of Religious Thought in Islam, P. 55.

والأمر الثالث أن الإنسان (الذي هو محور فلسفة التاريخ) ليس مجرّد مركّب معقد من الكهيربات (الاكترونات) والبروتونات أو جمبة نفسية مملوءة بالدوافع النفسية . ولكنه مخلوق معقد إلى حد عجيب، ولا يمكن تحليله تحليلاً علمياً. فقد كان يشعر دائماً أنه شيء أكثر من مجرد مختبر كيمياوي تسيّره غريزة الجنس أو غريزة الجوع . إننا نجد في التاريخ الاجتماعي للبشر مغامرات لا تعدُّ ولا تحصى لم يخترقها أبداً ما يسمى بالأشعة المجهولة ، ولم يحلم بها أرقى الحيوانات عقلاً .

كلنا نعلم أن الإنسان قد قُيّدَ داخل حدود وجوده كإنسان، وأن حياته تعيّنها القوانين الطبيعية والكيمياوية، فهو قد أوجد في عالم لا يفي بحاجاته جميعاً إلا إذا جَدَّ وتعب . لذا فإنه يشعر بأن حوله محيطاً مؤلماً جداً وهو يحاول أن يجعله مبهجاً .

إن الرغبة في تحقيق هذا الهدف هي غاية كل الوجود الإنساني، وغاية سعي البشر منذ القدم . « ولو وضعت الأسباب التي تكمن وراء أعمال الإنسان في أبسط التعابير لظهر لنا أن إرادة أي أمرىء لا تقررها إلا حاجاته التي تظهر في حالته الشعورية بشكل شعور بالألم » .

وهكذا نجد أن هناك نوعاً من التوتر تسببه الذات الإنسانية إذ تغزو المحيط المادي ، والمحيط إذ يغزو الذات الإنسانية، وإن انتصار العالم المادي الذي ظل دائماً مستحوذاً على انتباه الإنسان وإرادته ، قد جعل كثيراً من المفكرين يعتقدون أن البيئات

المادية هي التي تفرض شكل مصير بني الإنسان . وقـــد أخذ (بَكل راتسل Buckele Ratzel) فضلاً عن (كوميت Comete) (وسبينسر Spencer) و (آلان دريبر Alan Draper) على عاتقهم وضع هذه القوانين. وكانوا يتجنبون ذكر العنصر البشري، ولكن تأكيدهم على العالم المادي جعلهم يجردون التاريخ من صفته البشرية ، فلا يفرّقون بـين الإنسان والأحياء الأخرى العليا منها والدنيا ، وبين النبات والحيوان .

وكما أن التفسير الجغرافي للتاريخ مقبول لدى علماء الفيزياء ، فإن التفسير الاقتصادي للتاريخ أكثر موافقة للعقل عند المؤرخين وأكثر منهم عند علمـاء الاجتماع . فمفتاح التاريخ يعتبر الآن هو الإنتاج الاقتصادي للإنسان. وطبيعي أن هذه النظرية كسابقتها تستند إلى حد لا يستهان به على النظرة الجغرافية للتاريخ .

وتقرر هـذه النظرية أن العوز الاقتصادي النسبي هو الحافز لكل تقدم ، لذا فإن عدم التناسب بين حاجات الإنسان التي لا حدود لها وبين الوسائل المحدودة هو الألم الذي تسعى البشرية إلى تسكينه وتهدئته .

وحتى لو نظرت إلى هـذه النظرية نظرة سريعة عابرة فإنك ستقتنع بأنها قد تجاهلت الشخصية الإنسانية تجاهلاً كلياً. والحقيقة الواضحة التي لا مراء فيها هي أن على البشرية أن تعتمد على العالم المادي لإزالة الألم المتأتي من حاجاتها الطبيعية ، وبالرغم من أن الإنسان ليس هو خالق هذا الكون ، فإن لديه الإرادة والمقدرة

على تسخيره لمصلحته . وهكذا يكون الإنسان في هـــذا العقد المبني على الأخذ والعطاء بينه وبين محيطه الطبيعي أو الاقتصادي دور فعال جداً، يظهر به الإنسان ما في وجوده من مكنونات. يقول إقبال : « إن مهمة الإنسان أن يساهم في أعمق مطامح الكون من حوله ، وأن يقرر شكل مصيره هو ومصير الكون ، تارة بتكييف نفسه حسب قوة الكون ، وتارة ببذل كل طاقته لصياغة قوى الكون بالشكل الذي يتفق وأهدافه (أي أهداف الإنسان) وغاياته » [١] .

وهنا يبرز السؤال التالي : هل في وسع الإنسان أن يصل إلى هذه الغاية بمجرد السيطرة على محيطه المادي ؟

هنالك عدد غـــير قليل من الذين يعتقدون أنه يمكن حل الأمور المعقدة في حياة الإنسان بواسطة القوانين الطبيعية . وهم يعتقدون أن التقدم السريع الذي استطاع الإنسان أن يحققه في مجال السيطرة على قوى الطبيعة حقيق بأن يمنحه من الأمن والسعادة خيراً مما كان له في العصور السابقة . ولكن لو أمعنّا النظر لوجدنا أنـــه إذا كانت الجرائم واستعمال الشدة والعنف في

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٢ .

وتجد نصاً مشابهاً في ص ١٩ من الترجمة العربية لعباس محمود المطبوعة في القاهرة عام ١٩٥٥ بعنوان تجديد التفكير الديني في الإسلام . تأليف محمد إقبال . (المترجم)

تلاشٍ ، وإذا كانت قيمة حياة الإنسان قد ازدادت. فليس ذلك لانتصار الإنسان على العالم المادي .. بـــل لعله نتيجة لضعف الإرادة ، والكسل ، أو لعله نتيجة لوجود رقابة وسيطرة أكثر في الدولة الراقية ، وإن كل اعتداء أو تجاوز يكتشف حـــالاً ويعاقب عليه ، حتى إن الإنسان ليعيش في خوف نافع من سلطة موجودة دائماً في شعوره تراقبه .

إن الإنسان المتمدن ليس أحسن خُلـُقاً من الإنسان المتوحش، وإنسان اليوم لا يختلف عن الإنسان في أقدم العصور الحجرية . في أي وجـــه يعتبر الفوضوي الذي يرمي قذيفة دون أن يلتفت إلى أنها قد تمزق الأطفال والنساء إرباً أسمى من المقاتل المتوحش الذي يهاجم أعداءه بالليل ويذبح الرجال والنساء والأطفال !

هـــل إن صاحب الشركة الخبير بالمضاربات التجارية ، الذي يكدّس مئات الملايين ويسرق آلاف الأسر من كل ما لديها دون أن يتأثر أو تتحرك مشاعره ، ويقودهم بذلك إلى الشقاء واليأس وحتى إلى الانتحار بينما يغتني هو بثمرة أتعاب حياة أهـــل هذه الأسر ، هل إن هـــذا أقل إجراماً وتلبساً بالسرقة والتقتيل من قطّاع الطرق العريقين ؟ . .

إننا نجد أن في الاختراعات الفنية تقدماً لا شك فيه، ولكن هذا لا يدل أبداً على أي تقدم في سعادة البشر ، إذ أن هـــذه المخترعات تسهّل على مخترعيها إشباع الأنانية الخبيثة في نفوسهم. بل لقد أصبح كل اختراع وسيلة لإساءات جديدة لم يكن يمكن

القيام بها أبداً – أو بهذه السهولة – باستعمال آلات أقل منه كمالاً .

وهكذا نجد أن التقدم العلمي – وإن كان أحد علامات التقدم الإنساني – لا يضمن التقدم للبشر . وأنه ليندر أن ينقطع خط التقدم العلمي إلا عندما تحل بالمجتمع كارثة تدمّره ، إذ أن أي شيء يتم تحقيقه في العلوم المادية يستغل اعتيادياً الإتيان بأشياء أخرى جديدة وتحسين ما تم تحقيقه . أما أمر تقدم الإنسانية فيختلف عن هـذا ، إذ ليس في حياة الإنسان الأخلاقية تقدم حتمي ، فهي معرضة للتأخر كما هي معرضة للتقدم ، وإن ماضيها لا يضمن مستقبلها .

يتضح من ذلك أن الإنسانية ليست قط مستقرة ثابتة ، بل هي في حركة دائبة ، ولكن حركتها ليست تقدماً دائماً . فما هو إذن القانون الذي يسيطر على حركتها ؟

لقد قلت آنفاً إن كل الأعمال التي يقوم بها الناس أفراداً أو جماعات ، طبقات أو شعوباً ، إنما يقومون بها دفاعاً عن سعادتهم ، أي عن حياتهم ، وحماية لأنفسهم من الألم . ولأجل بلوغ هذه الغاية لا بدّ للإنسانية من أن تبذل الكثير من الجهد . وهذا يدفعها إلى العمل ، فتقهر العالم المادي وبذلك تخطو خطوة إلى الأمام في طريق التقدم . ولكن انتصار الإنسان هذا يزيد حياته في كثير جداً من الأحيان ألماً بدل أن يريحه من ألم الحاجة المادية ، إذ أن أولئك الذين وُهبوا ذكاء أكثر يفلحون في سرقة نصيبه الشرعي من كنوز الطبيعة ، ويستطيعون أن يبرروا

أفعالهم مهما كانت ظالمة وجائرة على بني الإنسان بقانون أخـلاقي مبني على القوانين المـادية . وهكذا تتأخر الإنسانية بدل أن تتقدم . فإن تقدمها الحقيقي يكمن في أن ظروفاً ملائمة تُخلق من الطبيعة نفسها وأنها تنتقل مع هذه إلى الإنسان السوي. فالخطوة الأولى واجب العـلم ، والثانية واجب الأخلاق ، إذ بالأخلاق وحدها يستطيع المرء أن ينجو من الإغراء الذي لا يطاق والذي يضعف النسيج الخلقي عند بني الإنسان . وبتعبير آخر يمكن أن يقـال : إن التقدم يكون بسيطرة المبادىء الأخلاقية على قوى الطبيعة . وقـد حوى التاريخ شواهد كافية على أن القوة التي لا تقيدها الأخلاق تصيب العالم بهزات عنيفة قاسية .

النظرة الاحيائية للتاريخ

« هل يمكننا أن نحيي حضارة مندثرة ونعيدها إلى سالف مجدها وعظمتها » ؟ هذا سؤال نوقش وبُحث كثيراً في المحافل الفكرية العلمية. فكثير من الناس يعتقدون أن للحضارة أطواراً من العمر تمر بها تشبه أطوار العمر التي يمر بها الإنسان. « فالطور الأول طور الفتوة والقوة وهو عصر الحكومة القوية والتوسع العسكري ، وفيه تكون الفنون غير منقّاة أو مهذبة ولكنها قوية . ثم تنمو الحضارة وتنضج ، وحينذاك يكون عصر ذهبي للفن والأدب .. ثم تبدأ ، دون أن تشعر ، عملية الانحطاط . فيضعف الإلهام في الفن والأدب ثم لا يلبث معينه أن ينضب . والروح تحقق غاية إمكانياتها في عالم الواقع بشكل شعوب ، ولغات ، وعقائد ، وفنون ، ودول ، وعلوم . ومتى حصلت الغاية — أي أن كل ما في الإمكانيات الداخلية نُفّذَ وصار في عالم الواقع شيئاً ظاهراً — فإنها تتصلب وتفسد ، ويجمد دمها وتنهار قوتها ، وتصير مدنية — وهي الفترة التي ينطفىء فيها ما في

الروح من نار. وهذا الذي يحصل في الداخل والخارج والنهاية التي تنتظر كل حضارة في هذه الحياة هو مآل كل أفول تاريخي» [١].

على هذا النمط – مع اختلاف يسير – سار تاريخ حياة بابل وآشور ومصر واليونان وشبه جزيرة العرب . والتاريخ مشحون بالأمثلة التي تدل على «أن موجات متماثلة لا نهاية لها من الحضارات البشرية قد ظهرت في الأزمنة الطويلة ، وارتقت كلها رقياً هائلاً وانتعشت في ظروف زاهرة من الحيـاة ثم انكمشت وتلاشت ، وصار سطح الزمن مرة أُخرى فلاة نائمة » [٢] .

ويستنتج من ذلك منطقياً أن جميع حضارات بني الإنسان قد وصلت أوجها يوماً ما ، وبعد أن استمتعت بأيامها الزاهرة اختفت في ليل لا نهاية له، لذا فالحديث عن أمر إحيائها إنما هو مثل الحديث عن إعادة أيام طفولة شخص ما ، وهو ما لا يمكن حدوثه إلا في الخيال .

إن تحليل هـــذه النظرية تحليلاً دقيقاً يوضح حق الرجل البسيط أن الذين يضعون مثل هذه النظريات لا يعنون بالحضارة غــير المظهر الخارجي لمستوى الرقي الذي استطاعت أن تبلغه طائفة أو أمة من الأمم ، فهم يركزون انتباههم على المظهر الخارجي ، ولا يدركون أبداً أن هذا الذي يظهر لعيونهم قـد

---

(١) Oswald Spengler, The Decline of the West, Vol. I, P. 106 .

(٢) المصدر نفسه .

حصل لوجود دافـــع داخلي ينبض في صدور البشر . فالمذياع والمذياع المصور والطيارة ليست هي ذاتهـــا حضارة ، ولكنها علامات على تقدم البشر في عـالم العلم ، فهي لا تدل إلا على أن الإنسان يسعى للسيطرة على الطبيعة . فكان الحضارة الحق عقل الإنسان (الذي هو مصدر كل ما يقوم به الإنسان من عمل) لا العالم المادي . إن الحضارة لا تعني طرازاً معيناً من العيش، وإنما اتجاهاً فكرياً وطريقة في التفكير يُؤديان آخر الأمر إلى إيجاد نوع معين من السلوك الإنساني ، أو هي كيان الأمـــة الفكري الذي تستضيء به في كل ما تأتي من عمل .

«إن المعلومات التاريخية التي لدينا تبين لنا أن التاريخ —حتى هذه الساعة— قد تكرر حوالي عشرين مرة كان فيها جميعاً يوجد مجتمعات إنسانية من النوع الذي ينتمي إليـه مجتمعنا الغربي . مثال ذلك أن الرومان واليونان في العصور السالفة وشعوب الغرب اليوم كلهم ينتمون إلى حضارة مادية واحدة بعينها ، على ما بينهم من بون شاسع في الزمان والمكان .. بل إنك لتجد في العالم الآن أمماً عديدة قد مزقتها المنافسة القومية، وهي مع ذلك متفقة في المشكلات الأساسية للحياة الإنسانية . خذ مثلاً لذلك انكلترا أو أمريكا أو اليابان أو ألمانيا . فهم جميعاً يعالجون مشكلة العلاقة بين الإنسان والإنسان ، وبين رأس المال والعمال، وبين الفرد والمجتمع بطريقة واحدة . فلماذا كان هـــذا التشابه العجيب بين هـــذه البلدان ؟ لأن نفس خيط (المادية) يمر من

سداة النسيج المزوّق لحياتهم المتعددة الجوانب ومن لحمته ، ففي ضجيج الحياة وضوضائها – مهما اتسعت وامتدت ، وفي تضارب العواطف والمصالح ، وفي إلحاح الدوافع العاجلة وضغطها ، وفي صخبهم للحصول على المطالب المتسمة بالأنانية – تجد أن أبصارهم لا تزول عن غايتهم المثلى – وهي تحقيق وسائل الراحة المادية. إن التطلع إلى هذه الغاية المثلى لا يقتصر في تجلّيه على اقتصادهم وسياستهم ، وإنما يكاد يشمل كل جوانب مجتمعهم تقريباً ، وكل المجالات المهمة في حياتهم – فنونهم وعلومهم وفلسفتهم ودينهم وقانونهم وأخلاقهم وسلوكهم وتقاليدهم ومن ذلك شكل العائلة والزواج – وخلاصة القول : إنها غاية تُحِسُّ بها تنبض في كل طريقة حياة المجتمع الغربي تقريباً وفي فكره وسلوكه .

إن الحضارة العظيمة ليست قط مكاناً يكدّس فيه حشد من الظواهر الحضارية المختلفة تكديساً تكون فيه الواحدة بجنب الأخرى وليس بينها وبينها علاقة ، وإنما هي الحضارة التي تمثل وحدة أو كياناً مستقلاً يتغلغل في أجزائه المختلفة مبدأ أساس واحد، ويتصل بالقيمة الأساس التي تقوم منها مقام الفكرة الرئيسية والعقل . ولو درسنا عن كثب بنيان المجتمع الحديث لوجدنا أنه مُقامٌ على أساس « مادي تجريبي لا ديني دنيوي » وأن حضارته مبنية على هـــذه القيمة الجديدة التي أصبحت بمثابة مبدأ وأقيم كيانها كله حولها . ليس من شك في أن مدنيات قـــد ظهرت وزالت ، ولكن الحضارات أفلحت في كل مرة في أن تعود إلى

الحياة تارة أخرى عند أمم غير التي كانت عندها من قبل. «فحين انهارت المدنية الصينية القديمة في القرن السابع قبل الميلاد لم يمنع انهيارها المدنية الإغريقية المعاصرة لها من أن تمضي في الصعود نحو أوج رقيها في الجهة الأخرى من العالم القديم. وحين انقرضت المدنيــة الإغريقية الرومانية آخر الأمر بسبب آفتي الحرب والطبقات اللتين استشرتا في القرن الخامس والسادس والسابع للميلاد لم يحل ذلك دون ميلاد مدنية جديدة في الشرق الأقصى في تلك السنين التي قاربت الثلاثمائة» (١).

إن تكرار الحضارة هذا ممكن لأن أية طائفة أو أمة تستطيع أن تتخذ أية نظرة للحياة متى شاءت. وهذه النظرة تضفي لونها الخاص على كل الأعمال.

فإذا اعتادت شعوب أن يكون لها سلوك ما، فإن سلوكها هذا يكوّن لها حضارتها. فحقيقة الحضارة بنيان تشيده النظرة المسيطرة دائماً والتي تظهر في أعمال متعلقة بالعادة التي درج عليها مزاج خاص. إن الحضارة أساس المدنية، والمدنية بصورة عامة تعبير عن الحضارة في الحدود التي تفرضها الظروف. لذا فقد يكون اختلاف بسيط في المدنية بسبب تغيّر الزمان والمكان. ولكن إذا كانت النظرة إلى الحياة واحدة فلا بدّ من أن تتشابه الحضارات. إن الطبيعة الإنسانية، على كثرة تقلبات الزمن، لم

---

(١) Arnold Toynbee, Civilization On Trial, P. 24 .

يطرأ عليها أي تغير مطلقاً . فحبّ السلطان ، والتحمّس للعلم ، والرغبة في البناء ، والتضحية من أجل الصحاب – كل هذه البواعث توجه أعمال البشر حتى هذا اليوم. والماضي الذي تولّى هو نفسه الذي يأتي أمامنا بلباس المستقبل ، ونحن نظن أن شيئاً جديداً قد قام على أشلاء الماضي وأنه ليس بين ذلك (القديم) وهذا (الجديد) شبه. ولكن هذا تجاهل شديدٌ للحقيقة الواقعة.

« فالحرب والطبقات كانا معنا منذ ظهرت المدنية الأولى فوق سطح الأرض في الحياة الإنسانية البدائية . فهل كانت الحرب الأهلية [1] مثلاً الحادثة الوحيدة أم أن حوادث تاريخية أخرى فيها من الشبه والتقارب ما يجعلنا نعدها والحوادث المشابهة لها ممثلين عديدين لصنف واحد من الحوادث تكرر التاريخ في أشخاصهم إلى حد ما في الأقل؟ إن الأزمة التي ظهرت في التاريخ الأمريكي في شكل الحرب الأهلية ، قد كررت دون ريب وبشكل مهم في الأزمة المعاصرة التي حدثت في تاريخ المانيا وذلك في حروب بسمارك بين عامي ١٨٦٤ و١٨٧١ . ففي كلتا الأزمتين كان الاتحاد السياسي غير المتكامل يهدد بالانحلال التام. وفي كلتا الأزمتين كانت الحرب هي الفيصل بين انحلال الاتحاد وزواله ، وبين إقامته على أسس متينة وبشكل قوي . وفي كلتا الأزمتين كان النصر حليف أصحاب فكرة الاتحاد القوي ، وفي

---

(١) يقصد الحرب الأهلية في الولايات المتحدة .

كلتا الأزمتين كان أحد أسباب انتصارهم أنهم قد فاقوا أعداءهم فنياً وصناعياً ، وفي كلتا الأزمتين أيضاً كان يتبع انتصار قضية الاتحاد توسعٌ صناعيٌ هائـــل أحال كلاً من الولايات المتحدة ورايخ (دولة) ألمانيا الثانية في مـــا بعد الحرب إلى منافسين صناعيين هائلين لبريطانيا العظمى . وهنا نكون قـد وقفنا على مثل آخر لتكرار التاريخ . ففي القرن المنتهي في حوالي عـام ١٨٧٠ ربمـــا بدت الثورة الصناعية في بريطانيا العظمى حادثة تاريخية فريدة ، ولكنها قـد أصبحت تبدو منذ عام ١٨٧٠ على حقيقتها ، وهي أنهـا مجرد أول مثل للتحول الاقتصادي الذي كان مقدراً له أن يحدث آخر الأمر أيضاً في عـــدد من البلدان الغربية الأخرى وفي بعض الدول غير الغربية أيضاً. وفوق ذلك، فإننا إذا حوّلنا انتباهنا من الجانب الاقتصادي العام في التصنيع إلى الجانب السياسي العام في الوحدة الاتحادية Federal Union رأينا أن تاريخ الولايات المتحدة والمانيا في هـذه النقطة يتكرر مرة أخرى في تاريخ بلد ثالث – وهو في هذه المرة ليس بريطانيا العظمى وإنما كندا، التي دخلت المقاطعات المكونة لها في اتحادها الحالي عام ١٨٦٧ ، بعد سنتين من إعادة إقامة وحـدة الولايات المتحدة عام ١٨٦٥ من الناحية الفعلية . وقبل أربع سنوات من تأسيس رايخ (دولة) المانيا الثانية عام ١٨٧١ » .

« ونحن نجد أيضاً في ظهور عدد من الدول الاتحادية في العالم الغربي منذ وقت قريب ، وكذلك في تصنيع هـــذه الدول

وغيرها، برهاناً على أن أحداث التاريخ تتكرر ، إذ نرى أن العمل الذي قام به البشر في زمن ماض قد جاءت له أمثلة تكاد تكون معاصرة . إلا أن معاصرة الأمثلة المختلفة لبعضها أمر تقريبي فقط . فالثورة الصناعية التي قامت في بريطانيا ، وكانت حادثة فريدة دون ريب ، قبل أن تقوم في أمريكا والمانيا بما لا يقل عن جيلين ، ثبت أنها ظاهرة متكررة ، والولايات المتحدة التي لم تكن قبل الحرب الأهلية محكمة الترابط قد بقيت سبعاً وثمانين سنة ، والاتحاد الالماني الذي كان متداعياً بعد حرب نابليون قد بقي هو أيضاً نصف قرن قبل أن تبرهن الحوادث الحاسمة الخطيرة التي وقعت في العقد السابع من القرن التاسع عشر على أن الوحدة الاتحادية كانت شكلاً متكرراً ُقدّرَ لهُ أن يحدث لا في كندا وحدها بل في استراليا أيضاً وجنوب إفريقيا والبرازيل»[(١)]

ان التغير في الطبقة العليا لا يستوجب حتماً أن يكون ممثلاً للتغير في الداخل . وإن قافلة المدنية التي تقدمت من الكهوف المظلمة إلى العمارات الهائلة ، ومن ركوب الحمير إلى الطيران في الجو ، ومن حالة العري التام إلى ملابس زاهية ذات أجمل تفصيل، هذه القافلة المتقدمة تمثل حقيقة جوهرية واحدة فقط : فقد كانت تحدوها في تقدمها رغبة قوية في التحرّي وإعادة البناء ، وإن هذا الميل في ذهن الإنسان هو الذي قاد الإنسانية خلال العصور ــ

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٤ – ٣٥ ، ٣٥ – ٣٦ .

من العصر الحجري إلى العصر الحديث ذي الإنتاج الرأسمالي .

لقد حصل دون ريب تقدم كبير في الفن والأدب وفي العلم والفن الصناعي، ولكن لم يحصل قط أي تغير في طبيعة الإنسان، فإن روح المنافسة التي كانت تجعل القبائل في عصور ما قبل التاريخ تصطرع اصطراعاً رهيباً لا تزال تتغلغل في ذهن الإنسان الحديث وهو مشغول في اختراع أسلحة الدمار لإبادة البشر من فوق سطح هذا العالم . إن قيصر قد قتل منذ زمن بعيد ، ومع ذلك فالنزعة القيصرية لا تزال ترعب الإنسان . وكل من ينظر أدنى نظرة إلى الاتجاهات الحديثة في التاريخ سيسلّم بأن الظلم والثورة ، والازدياد المطرد في عدد الذين ينالون تدريجياً مزيداً من الحقوق السياسية في داخل المجتمع وخارجه أمور تتكرر في تاريخ الإنسان حتى هذه الأيام . فالعقلية التي تسيطر على الإنسان الحديث هي نفسها لم تتغير ، وإذا كان من فرق فهو فرق في السرعة والتكوين .

إن لكل حضارة روحاً خاصة بها تظهر في وجوه المدنية المديدة . وهذه الروح يمكن أن تضعف ، ولكنها لا يمكن أن تموت . إن قانون تناسخ الأرواح يفعل فعله في الحضارات . فالمدنيات تولد ثم لا تلبث بعد حين أن تندثر ، ولكن روح الحضارة تتخذ ثوب أية مدنية أخرى ثم تسيطر على العالم .

وسنبدأ في تشريحنا هذه الحركة الدورية للحضارة بدراسة الفنون الجميلة ونظام الحقيقة والأخلاق والقانون .

الفنون الجميلة مرآة بالغة الإحساس من مرايا المجتمع والحضارة اللذين تكوّن هذه الفنون أجزاء مهمة منها. فكما يَكن المجتمعُ والحضارة تَكُنْ فنونها الجميلة. ولنعطِ صورة أوّلية موجزة لنوعي الفنون. النوع الديني، والنوع المادي الحسي.

فالفن الديني في محتواه ونوعه يقرر الفرضية الكبرى في «الحضارة الإلهية» وهي أن القيمة الصادقة حقاً هي الله. وهي تعتبر الإنسان خليفة الله على الأرض، لذا فهي تؤكد على الجانب النبيل من الإنسان. إنه فن يتعمد الإعراض عن كل ما هو خسيس وحقير وقبيح، والإقبال على كل ما هو شريف وسام وجميل. بينما لا يمثل الفن المادي الحسي غير الحواس: إنه يمثل الجانب السفلي من الإنسان إذ هو يمجّد كل شيء دنيء سافل، وأبطاله بصورة عامة هم البغايا والمجرمون والمنافقون والخبثاء ذوو المكر والحيلة، وليس لهذا الفن من هدف غير توفير المتعة الحسية والكسل وإثارة الأعصاب المتعبة، والتسلية واللذة والمتعة» (١).

لذا فحيثما ذهبت الحضارة الحسية تبعتها فنونها الجميلة. وكل الأمم التي نمت عندها (النظرة المادية) للحياة نمّتْ فنّها بالشكل نفسه. لذا فقد كان هذا الفن «الشكل السائد من الفن عند إنسان أوائل العصر الحجري المتوسط في كثير من القبائل البدائية

---

(١) P. A. Sorokin, The Crisis of Our Age, P. 32

كقبائل بشمان الإفريقية وقبائل هندية واسكيثية [1] كثيرة ، وأشباهها . وقد تغلغلت في الفنون الجميلة للدولة الآشورية ، في بعض فترات تاريخها في الأقل ، وفنون مصر القديمة في العهود الأخـــيرة للمملكة القديمة والمملكة الوسطى والامبراطورية الجديدة ولا سيا في فتراتها الأخيرة ، أي عهود سائس [2] وعهد البطالسة [3] والعهد الروماني . وقـــد كانت دون ريب طابع العهد الأخير المعروف من الحضارة اليونانية من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الرابع بعد الميلاد، وأخيراً فقد كان هذا الفن

---

(١) Scythian وهي قبائل متوحشة كانت تسكن في منطقة البحر الأسود وجنوب بحيرة قزوين. وقد تكون ذات صلة بالروس الذين أطلق عليهم العرب اسم الصقالبة . وقـــد دخلت هذه القبائل في حروب كثيرة مع الآشوريين والحيثيين . وكان آخر عهد بهم حروبهم مع الملك آشور بانيبال في حدود سنة (٦٣٠) قبل الميلاد وفي منطقة كليكيا حيث قضى عليهم .

(٢) سائس Sais مدينة قديمة على دلتا النيل تولت الزعامة في غرب الدلتا في القرن الثامن قبل الميلاد . أصبحت عاصمة مصر على أيام السلالة السادسة والعشرين .

(٣) البطالسة جمـــع بطليموس . وهم حكام مصر من السلالة الاغريقية المصرية التي حكمت ما بين سنة ٣٢٣ وسنة ٣٠ قبل الميلاد . وأول هـــذه السلالة بطليموس الأول الذي عاش ما بين ٣٦٧ ؟ و ٢٨٥ قبل الميلاد . وقد أصبح ملكاً على مصر بين ٣٢٣ و ٢٨٥ قبل الميلاد، وهو الذي أسس مكتبة الاسكندرية . وآخر هذه السلالة الملكة كليوباترا الشهيرة التي عاشت ما بين سنة ٦٩ و ٣٠ قبل الميلاد . (المترجم)

هو السائد في المجتمع الغربي في القرون الخمسة الأخيرة » [١] .

أما الفن الإلهي الذي يمكن أن يطلق عليه اسم « الفن المعبر عن فكرة ، فكان قد سيطر في بعض الحقب من الزمن على الفن في حضارة الصين التاوية Taoist - China والتبت والحضارة البوذية وحضارة مصر القديمة ، وعلى الفن في حضارة اليونان من القرن التاسع حتى نهاية القرن السادس قبل الميلاد ، وكذلك على الفن في حضارة الغرب المسيحي في أول عهده وفي عصوره الوسطى ، وغير ذلك » [٢] .

« ومهما اختلفت الفنون الجميلة ، مثلاً ، عند الشعوب البدائية والمتمدنة ، اختلافاً من وجوه كثيرة ، فإنها كلها تعرض للناظر سلسلة من المميزات الداخلية والخارجية المتشابهة حين تكون كلها منتمية إلى نوع واحد . وهذه الحقائق تعني ، في ما تعني ، أن غلبة هذا الشكل أو ذاك في الفنون الجميلة ليس قضية وجود المهارة الفنية أو عدمها ، وإنما للنظرة الخاصة التي يتخذها كل شعب من زمن إلى آخر » [٣] .

وهذا هو الحال أيضاً مع نظام الحقيقة والمعرفة ، فأي نظام للحقيقة والواقع المحسوسين يعني إنكار أية حقيقة أو قيمة تفوق

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٥ .
(٢) المصدر نفسه ، ص ٣٤ .
(٣) المصدر نفسه ، ص ٣٥ .

الطاقة الحسية ، أو النظر إليها نظرة عدم مبالاة تامة. إن الثقافة المادية الحسية ترى البحث في طبيعة الله وفي كل ظاهرة تسمو على الحس ضرباً من الخرافة أو دراسة عقيمة .. فإذا كان لا بدَّ من اتباع الدين فللغايات الدنيوية فقط ، وإذا ما قُبِلَتْ فإنما تُقبَل كما تُقبَل الهوايات الكثيرة . إن نظام الحقيقة هذا يدعو بقوة إلى دراسة العالم المحسوس بخواصه وعلاقاته الفيزياوية والكيمياوية والاحيائية ، وقد رُكِزت فيه كل مطامح الفكر على دراسة هذه الظواهر المحسوسة في ماديتها وما يلحظ من علاقاتها ، والمخترعات الصناعية الفنية التي تهدف إلى خدمة حاجاتنا المادية الحسية. فهذه النظرية مادية في كل جوانبها، وهي تنظر إلى كل شيء بصورة صريحة أو مستورة ، تنظر إليه من نواحيه المادية .. والميزان الوحيد بين الصواب والخطأ والفضيلة والرذيلة هو إما المنفعة الحسية أو الملذات الحسية . أما نظام الحقيقة السماوي فيؤمن بالقيم الأخلاقية التي تمثل أهدافاً . وهو نظام مبني على الوحي والإلهام الرباني ، ولذلك فهو موثوق به ومطلق . فالأخلاق ليست أموراً تقتضيها المصلحة الخاصة وُصوِّرتْ أموراً منطقية يقتضيها العقل،بل إن لها معنى وغرضاً معيناً واضحاً . وهي ليست مقيدة بالوقت والظروف، وإنما هي شيء أبدي ثابت لا يتغير .

إن دراسة التاريخ دراسة موضوعية ستكشف كيف أن كلا من أنظمة الحقيقة هذه قد مرّت عليه أدوار متعددة ساد فيها .

« إن الحقيقة الحسية للحضارة الكريتية الميسينية[1] قد أفسحت المجال للحقيقة المعبرة عن فكرة لكي تظهر في اليونان بين القرن الثامن والقرن السادس قبل الميلاد . وهذه أيضاً قد أزاحتها الحقيقة الحسية التي جاءت بها الفترة الواقعة بين القرن الثالث قبل الميلاد والقرن الرابع بعد الميلاد، والتي تبعتها الحقيقة المعبرة عن فكرة وهي الحقيقة التي جاءت بها المسيحية ، وذلك في الفترة الواقعة بين القرن السادس ونهاية القرن الثاني عشر . وفي القرن الثالث عشر سادت الحقيقة المعبرة عن فكرة على كل ما سواها ، لكي يتبعها مدٌ ثالث دامت له السيطرة من القرن السادس عشر حتى يومنا هذا . لذلك فبدلاً من التيار التقدمي المستقيم المزعوم للحقيقة الحسية في عصور التاريخ كافة ، نشاهد سلسلة من التذبذب من نظام سائد إلى نظام سائد آخر »[2] .

إن الحركات الدورية في مجال الفن والأدب، وفي نظام الحقيقة والعلم والفلسفة والدين ، برهان كافٍ على أنه بالرغم من أن تغيرات عديدة قد حدثت في مدنيات العالم وأن المدنيات تنشأ وتنهار ، فإن الحضارة التي هي روح المدنية قد تكررت في

---

(١) نسبة إلى جزيرة كريت وإلى مدينة ميسينه Mycenae الاغريقية القديمة الواقعة في بيلوبونيس الشمالية الشرقية . والحضارة الميسينية هي التي وجدت في اليونان وكريت وآسيا الصغرى ما بين ١٥٠٠ و١١٠٠ قبل الميلاد . (المترجم)

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٠٤ .

التاريخ مرات كثيرة ، والمدنيات المتعاقبة التي حلّت فيها هذه الروح قـــد أنتجت نوعاً واحداً من الفلسفة والدين لا غيره في المراحل المختلفة من تاريخ البشرية .

ربمـا وُجدت بعض أوجه اختلاف لما بين البيئات الطبيعية التي تولد فيها كل مدنية من اختلاف ، ولكن التيار الذي يسيّر المدنية يبقى نفسه . فالمظهر الذي تتخذه الحضارة المادية الحسية مدني حسّي ، سواء كانت الفترة هي القرن الخامس أم القرن العشرين ، وسواء كانت البلاد بلاد العرب أم انكلترا أم أمريكا.

إن صرح المدنية الحديثة الباهر يجعل المرء يستنتج أحياناً أن البشرية لم تكن يوماً ما قط قادرة على أن تحرز هـــذا التقدم الكبير في مجـــال الفن والأدب والعلم والفن الصناعي . ولكن سجلات التاريخ حافلة بالشواهد على أنه قد ظهرت في هذا العالم مدنيات كثيرة أكثر روعة في « مظهرها » من المدنيـــة الغربية الموجودة الآن . وقد بدوا لنا أنهم قد وصلوا قمة التقدم المادي والرخـــاء الاقتصادي ، وأنهم أيضاً حوّلوا أوطانهم إلى أرض بهيجة ذات خيرات عميمة .

هذه المدنية التي ترتكز على قاعدة مادية بحتـة والتي تتخللها منذ البداية روح اللذة الحسية ، قد سيطرت على العالم غير مرة ، وكانت مبادئها الرئيسة دائماً « هذا العالم وحده .. واللادينية ».

هذه الحضارة الحسية في نسيجها قـد قامت بأدوارها مرات

كثيرة في تمثيلية الحياة البشرية. ونحن نرى مما نعرف من التاريخ أن أول مَن مَثَّلَ هـــذه الحضارة هم « قوم عاد » في جزيرة العرب » ، فإن طراز حياتهم يظهر بجلاء أنه كانت توجهه المادة وحدها. وقد أكل التنازع على المصالح قلوب أبنائها وبناتها كلهم تقريباً، واندفعوا اندفاعاً جنونياً في حُمّى التسابق على جمع المال والاستزادة من الملذات . ثم أعقب ذلك انهيـــارهم ومجيء قوم آخرين على مسرح العالم هم « قوم ثمود » في قوة وحماس جديدين. وكانت آفاق فكرهم مكسوّة بلون المادية المظلم ، فلم يكن خيالهم يتسع قليلاً لأن يفكر في أن وراء هـــذه الحياة حياة أخرى . لذا فقد كان نشاط هؤلاء القوم وعملهم موجّهاً أولاً وآخراً نحو الحصول على وسائل الراحة الدنيوية .

وقد أحرز الرومان في هذا المجال تقدماً كبيراً ، فقد طغت على حيـــاتهم الفلسفة المادية الحسية للحياة ، والأخلاق الحسية والسلوك الحسي والتقاليد الحسية . وقد سمح النظام الاقتصادي الجائر جداً ، الذي كان سائداً في ذلك العصر ، بأن يقوم ترفُ القِلّةِ وثراؤها على فقر الكثرة وشقائهـــا . وكانت أية محاولة لتغيير هذا النظام والتخفيف من عدم المساواة والجور الذي فيه، تُقابَل بالقمع . وكان الاحتقار نصيب كل عبـــارة في القانون الديني المتعلق بالأخلاق .

كان الدين يأمر الناس بالفضيلة والرحمة والصدقة والعطف ،

ولكنهم كانوا يجدون متعة في ما يأتونه من قسوة، وكانوا يجدون كبرياءهم ويقيمون استعراضاً لأعمالهم الوحشية !..

وبعد مرور الزمن ، انهارَ صرحُ المدنية الزاهر هذا كما ينهار بيت من الورق، وقد أقامت المدنية الحديثة بنيانها على أنقاضه. وفي كلتا المدنيتين نجد أن شهوة السلطان والثروة هي نفسها .

« إن الأوروبي السويّ – سواء كان ديمقراطياً أو فاشياً ، رأسمالياً أو بلشفياً ، عاملاً يدوياً أو مفكراً – يَعْلَمُ ديناً إيجابياً واحداً هو عبادة التقدم المادي ، والاعتقاد بأنه مـا من هدف في الحياة سوى جعل هذه الحياة تزداد سهولة ويُسراً ، أو – بالتعبير الشائع – (تكون مستقلة عن الطبيعة) » .

أما معابد هـذا الدين فهي المعامل الضخمة ، ودور الصور المتحركة ، والمختبرات الكيميائية ، وقاعات الرقص والمعامل الكهربائية . وأمـا قُسُسُها فهم أصحاب المصارف والمهندسون ونجوم السينما ومديرو الصناعات وأبطال الجو .

إن النتيجـــة الحتمية لهذا الاندفاع الأهوج وراء السلطان والملذات ، إنما هي إيجاد جماعات متعادية متسلحة بكل سلاح ومصممة على أن يسحق بعضها بعضاً ، متى ما تصادمت مصالح أي منها بمصالح الآخرين وحيثما تصادمت. وكانت النتيجة – من الناحية الحضارية – أن أوجـد نوع من البشر تقتصر الأخلاق عندهم على مسألة النفعية العملية وحدها ، وأسمى ميزان لديهم

يفرقون به بين الخير والشرّ هو (النجاح المادي) [1] . وقد أدّى ذلك إلى أن صار تقدّم المعرفة الإنسانية مصيبة على الإنسانية المريضة ، بدلاً من أن يمنحها الراحة . فالقوى التي وضعها العلم بيد الإنسان الحديث تجعل الاستجابة لها دائماً تهديداً لكل مقومات المدنية .

فروح القومية لا تغرس الحب بين الأفراد والتعاون بين الأمم ، بل هي موجّهة نحو زيادة العظمة والعزة القومية ورفع المكانة القومية . والذي يؤسف أن تُصَوّر الأمة لنفسها أنها قانون مقدس ، وأنه يجب ألاّ يسمح لشيء ما أن يتعرض لسياستها بالإصلاح . فالحق هو ما يؤدي إلى منفعتها ، والفضيلة ما يعود عليها عمله بالنفع . وكم كان الرئيس الامريكي روزفلت مُصيباً حين قال : « إن الشعوب والأمم البريئة يُضَحّى بها الآن بقسوة إشباعاً لمطامع السلطان والسيادة الخالية من كل معنى من معاني العدالة والرحمة الإنسانية » .

فالملذات الحسية ووسائل الراحة الدنيوية وحدها تحكم عقل

---

(١) Muhammad Asad, Islam at the Crossroads, p. 56.

وقد تجد نصاً مشابهاً في ص ٤٥ - ٤٦ من الطبعة الرابعة من الترجمة العربية للدكتور عمر فروخ ، التي نشرتها في بيروت - دار العلم للملايين - عام ١٩٥٥ ، بعنوان « الإسلام على مفترق الطرق » ، تأليف محمد أسد .

(المترجم)

الإنسان الحديث ، وهو من أجل الحصول على الملذات ووسائل الراحة هذه لا يعرف قانوناً ولا عدلاً ولا فضيلة .

هذه هي روح الحضارة التي تشرّبت بهـــا مدنيات مختلفة وأنتجت شبهاً بينها من حيث التكوين . فقوْما « عاد وثمود » وشعوب الرومان واليونان والأوروبيون والأمريكيون في أيامنا هذه ، قد اتفقوا في الأمور الجوهرية من الحضارة إن لم نقل في تفصيلها . فهم جميعاً ينظرون إلى الحياة من زاوية واحدة بعينها ألا وهي زاوية المصلحة المادية .

ولننتقل الآن لحظة إلى بعض المشكلات الأساسية التي تتعلق بالحياة الإنسانية ، لنرى كيف كانت هـذه المشكلات تبرز مرة بعد أخرى لتحتل مكان الصدارة بين المشكلات كلهـا ، وكيف كان يعالجها الأفراد المختلفون الذين يمثلون حضارة واحـدة ، معالجة متماثلة في الروح والأسلوب . خـذ مثلاً لذلك العلاقة بين الفرد والمجتمع وراقبْ حركاتها الدورية .

لا جـــدال في أنه لم يكن في العصور البدائية كيان سياسي منظم ، ولكن ذلك لا يعني أنه لم يكن حينـــذاك كيان على الإطلاق، وأن الفوضى كانت وحدها تسيطر على المجتمع. فشكل النظام الاجتماعي الذي كان سائداً آنئذٍ يمكن أن يكون بدائياً ولكن لا يمكن أن يُنكر أنه كان موجوداً ، وأن الأفراد كانوا يعيشون وفق مبادىء معينة وضعها ذلك النظام،وفي هذا النظام كان الفرد يتمتع بحرية غير مقيّدة ، وأن النسيج الاجتماعي كان

أضعف من أن يقاوم قوة إرادة الفرد . هذه المرحلة من مراحل سيطرة الفرد على المجتمع ، تطوَّرت بعد مدة إلى مَلَكية أصبح فيها الفرد عبداً ذليلاً لمستبد يمثل الدولة كلها في شخصه وحده . وهكذا بُدِيء بتضحية حياة أفراد الرعيـــة وأملاكهم بحرِّية تامة في سبيل الدولة .

وسارت الأيام ، وظنّ أكثرنا أن هذه المشكلات لن تعود ، ولكن حوادث التاريخ التي تَلَتْ أثبتت آخر الأمر أن الحال غير ذلك ، بل لقد لاحظنا في هذا القرن رقاص حقوق الفرد على الدولة يتأرجح من جهة إلى جهة . فالمبادىء الجوهرية للديمقراطية الحديثة تعطي الفرد حرية لا حدود لها في التمتع بالحقوق .

فقـد كتب (جون ستيوارت مل John Stuart Mill) عن الحرية قولاً ذا شأن ، إذ قال : « لا بدّ للبشر أن يراعوا في سلوكهم بعضهم مع بعض قواعد عامة في أكثر النواحي ، لكي يعرف الناس مـــا يجب أن يتوقعوه . ولكن الفرد حُرّ في أن يأتي من أعماله الشخصية ذات البواعث الداخلية الخاصة ما يشاء ، ويمكن أن يقـدّم له الآخرون آراء تساعده في الوصول إلى حكم صحيح ومواعظ تقوّي إرادته ، بل قد تُفرض عليه دون أن يطلبها ، ولكنه هو نفسه الحَكَمُ الفصل في الموضوع ، وكل الأخطاء التي يُحتمل أن يقوم بها — رغم النصح والتحذير — أقلّ بكثير من الشرّ الذي يأتي به السماح للآخرين بإكراهه على القيام بما يعتقدون فيه الخير له » .

وكانت عاقبة هذه الحرية غير المحدودة التي يتمتع بها الفرد في النظام الديمقراطي وخيمة . فهو حرّ في أن يدوس حقوق إخوانه الضعفاء ، وهو حر في أن يستغلّ موارد البلاد لفائدته الشخصية ، وليست الدولة غير عبد رقيق للأفراد .

وبعد هذه التجربة المؤسفة في مجال الديمقراطية ، ظهر مرة أخرى ردّ فعل . فقد تجلى بعد وقت قصير أن شعار « كل فرد يعمل لمصلحة نفسه » لا يصلح قاعدة لمجتمع طيّب راضٍ ، وأن الشقاء الذي أحدثه تطبيقه عملياً أدّى إلى سياسة تدخّل الدولة لا في الأعمال الصناعية والاقتصادية وحدها ، وإنما في كل شعاب الحياة الإنسانية. فالفاشية والشيوعية تحكمان العالم الآن، وفي ظل هذين النظامين سلمت سلطات لا حدود لها بيد الحكومة التي يسيّرها شخص واحد أو بضعة أفراد قلائل .

إن على الدولة القومية أن تعمل بلا كلل ، لأجل أن تجعل كل الحكومة — لا سيما رأسها ، أي القيادة السياسية — غير مقيّدة بمبدأ سيطرة الأغلبية (أي الجمهور) لكي تضمن الحكم المطلق للفرد (أي الزعيم القوي) بدلاً منها. يجب أن لا تكون هنالك أغلبية تضع القرارات ، وإنما جماعة من المسؤولين فقط ، وتعود كلمة (مجلس Council) إلى معناها القديم [1] .

---

(١) المعنى القديم : هو جماعة مجتمعة من الناس لا أكثر ولا أقل . بخلاف المعنى الحديث الذي معناه تحمل مسؤولية التشريع كما في مجلس الأمة. (المترجم)

ويكون لكل رجل مستشارون بجانبه ، ولكن القرار يتخذه (رجل واحد) . فما يقرره هتلر صحيح ، وسيبقى صحيحاً مدى الدهر كما صرّح (الهر فرك Herr Frick) وزير داخلية المانيا مرة : « إن أدّيت فرضَ هتلر عليك فقد أديت فرض المانيا عليك، وإن أديت فرض المانيا عليك فقد أديت فرض الله عليك » . أما الشيوعية فقد تقدمت الدولة فيها خطوة أخرى في السيطرة على مصائر الناس . فهي جماعية من أولها إلى آخرها إذ أن الأفراد فيها إنما يوجدون في الأساس من أجل الدولة. سمّ رئيسها بأي اسم، ولكن سلطاته ليست بحال ما أقل من سلطات هتلر أو موسوليني . إنه يزعم لنفسه الكلمة النافذة في كل ما يجول بخياله ، وذلك الخيال يتخبط من جهة طرف الجمهوريات السوفياتية إلى الطرف الآخر . وإن هتلر وستالين وجهان لنفس الشخصية السياسية ، والفاشية والشيوعية جانبان لمبدأ التنظيم السياسي نفسه . فإذا كان نابليون بونابرت قد عاش في التاريخ بما كانت تنسجه الشرطة من مؤامرات ، وإذا كان ملوك المسلمين في العصور الوسطى قد حكموا في ظلال الحراب ، فإن ستالين أيضاً يستطيع دون ريب أن يستخدم شرطة الأمن السرّية التي استخدمها لإيقاع ضحاياه في مهاوٍ سوداء من اليأس .

إن مثلاً عن العلاقة الجنسية بين الذكر والأنثى سيوضح مقصدي إلى حد بعيد جداً .

كانت هذه العلاقة في أشد عصور التاريخ الإنساني بداءة

تشبه علاقة الحيوانات شبهاً تاماً . كان كل امرىء يتمتع بالحرية الكاملة في إشباع نهمه الجنسي من الفرد ذي الجنس الآخر. ومرت الأزمان فظهر نظام الأسرة في المجتمع ، ونشأ معه نظام الزواج الذي فرض قيوداً كثيرة على (الحرية) التي كانت موجودة . ثم ازدادت الأسرة مع الأيام قوة، ولكنها أصيبت بعد مدة بنكسة خطيرة وكان هــــذا أيضاً على يد فيلسوف لا يقل في وزنه عن أفلاطون الذي اقترح أن يجمع كل الأصحاء من الرجال والنساء في مكان ما في وقت واحد ويسمح لهم بالاتصال الجنسي . وكان يعتقد أنه بهذه الطريقة سوف لن يقصر الأطفال حبهم على رجل أو امرأة معينين، بل سيرتبطون بالجيل كله وبالدولة برباط الحب ارتباطاً أبدياً . ولم يمض زمن طويل حتى ظهرت للناس النتائج القتّالة لهــذا العمل السخيف فحاولوا أن يقوّوا نظامي الزواج والعائلة .

وقد كانت السنون الثلاثون الأخيرة ملأى بالحوادث في هذه الناحية « ففي السنين العشرة الأولى من الإدارة البلشفية كان الفهم السائد عن الاتصال الجنسي أنه مسألة " شخصية " ، تحدث بموافقة الرجل والمرأة سواء اتفقا أو اختلفا في العنصر أو اللون أو الدين ، وهو عمل لا يحتاج إلى القيام بشعائر دينية أو غـــير دينية ،وحتى التسجيل الرسمي لهذا الاقتران أمر اختياري تماماً» .

وفي السنين العشرة التالية نلاحظ تغييراً تدريجياً في النظر إلى هــــذا الموضوع . إذ لم يرض لنين قط بالتحلل الذي كان طابع

السنين الأولى التي تلت الثورة. فقد كان يعاف الفكرة التي ألقيت إلى الناس في الأيام الأولى من الثورة والتي تقول لهم إن الاتصال الجنسي عمل طبيعي تماماً كالأكل ، وليس فيه شيء ينتقد أكثر مما في تناول قدح من الماء عند العطش. وبصورة تدريجية أصبحت نظراته إلى الالتزامات الاجتماعية التي تنشأ عن الاتصال الجنسي هي النظرة المعتمدة لدى الحزب الشيوعي .

ولقد كتب ريازانوف Ryazanov ما يلي : « هل الزواج علاقة خاصة بين حيوانين يمشيان على رجلين وأمرٌ يخصهما وحدهما ، ولا يحق للمجتمع أن يتدخل فيه؟ إننا يجب أن نعلّم شباب الشيوعيين أن الزواج ليس عملاً شخصياً بل عملاً ذا أهمية اجتماعية عميقة » . وقال سولتس Soltz : « إن للزواج جانبين، الجانب الخاص والجانب الاجتماعي، ويجب أن لا ننسى قط الجانب الاجتماعي . إننا لا نريد أن تكون الحياة خليعة أو فاسدة لا نظام فيها ، لأن ذلك يؤثر على الأطفال »[1] . وهكذا تعود العائلة ونظام الزواج ليسودا في المجتمع مرة أخرى .

والتاريخ يخبرنا أنه حتى الديمقراطية ونظام الحكم النيابي الذي يبدو لنا أنه نتاج العصر الحديث ، تكمن نواته في أعماق عصور ما قبل التاريخ .

---

(١) Sidney &Beatrice Webbs Soviet Communism : A New Civilization, P. 849

إن دوران الحضارات هذا مع المشكلات التي ترتبط بها يقرر آخر الأمر أنه بالرغم من أن المدنيات قد ولدت وماتت ، فإن الحضارات لم يطرأ عليها تغيّر مهم . قد يحصل تحوّل في الميدان الذي تسيطر فيـه ، ولكن الروح التي تتجلى في كل الميادين والمجالات هي روحها نفسها، فإن عملية حلول الروح تعمل عملها في الحضارة . إن في وسع أية جماعـة من الناس في أي دور كانوا أن يتجهوا أي اتجاه فكري .. سواء كان اتجاه النفعية أو غيره، ويستطيعون أن يصوغوا حياتهم تبعاً له . وبمـا أن طبيعة البشر لا تزال نفسها لم تتغير ، على تقلب الزمن ، لذا فمشكلاتها هي المشكلات القديمة نفسها، ومهما حصل من تغير فهو في العالم المادي فقط. إن ظاهرة توالي الليل بعد النهار والنهار بعد الليل.. هذه الظاهرة المألوفة لا تقتصر ملاحظتها على الكرة الأرضية، بل هي نفسها موجودة، ويمكن ملاحظتها حتى في الحضارات والمدنيات. فكما أن أقساماً من العالم يغطيها ظلام الليل ، كذلك في هـذا العـالم بلدان وأمم تغطيها أجنحة الحضارة الحسية المخيفة . وكما يأتي فجر الصباح بعد الليل، كذلك يأتي بعد ذلك فجر الحضارة المعبرة عن فكرة. إلا أن اختلافاً مهماً واحداً يجب أن لا يفوتنا ذلك أنه مهما يحدث في العالم المادي فإنـه يظل مطيعاً لقانون الطبيعة الثابت الذي لا فكاك له منه. فالطبيعة تسير في طريقها سيراً آلياً ، أما أعمال الإنسان فليست كذلك . إنه قد أعطي حرية في الإرادة ، فهو يستطيع أن يختار وينتخب ويقبل أو

يرفض وفقاً لمــــا يرغب فيه . لذا فإذا ازدهرت الحضارات أو سقطت، فذلك كله لالتزام أتباعها بها أو تخليهم عنها. ولا يمكن تعيين لحظة معينة نقول أنها كانت نقطة تقدمها أو انحلالها . إذ أن الجهد الأخـلاقي الذي يبذله الناس هو الذي يقرر تقدمها . والنجاح إنما تصيبه تلك الفئة من الناس التي تتمثل فيها الفضيلة والعدالة بأكبر نسبة ، ولكن الفضيلة والعدالة هاتين لا يمكن الحصول عليها إلا بجهد واعٍ يتطوع ببذله الأفراد الذين يكوّنون فئة اجتماعية .

إنه لمن سوء حظ البشرية أن أصبح الإنسان « بالتعريف العلمي المادي ، مجرّد مركب معقد من الكهيربات والبروتونات ، أو مخلوقاً حيوانياً ، أو جهازاً ذا انعكاسات أو مجموعة متنوعة من العلاقات بـين الحوافز والاستجابات ، أو جعبة تحليل نفسي مملوءة ً بالدوافع النفسية » . ووفقاً لهـــذا اعتبرت أعضاء الحس الجاسية الناقصة الحكمَ الفصلَ بين ما هو حقيقي وما هو غـير حقيقي ، وبهذا انحط الإنسان إلى مجرّد آلة ذات أعضاء حية . ومن هنا استنتجوا أن حياة الإنسان أيضاً يحكمها قـانون الولادة والموت نفسه الذي يحكم حياة الحيوان . ونتيجة لذلك فـإن ما كان قديمـــاً لا يمكن أن يحتفظ بالقوة نفسها التي كانت له في عنفوانه ، وأنه لا مندوحة لما كان متجهاً نحو الهبوط والانحلال والاقتراب من النهاية من أن تقل قوته ويموت آخر الأمر .

إن هـــذه النظريات جميعاً لا تقوم على أساس لأنها مبنية على

التشبيه بتركيب الكائنات الحية . إذ أن الإنسان ليس حيواناً مجرّداً ، وإنما هو أكثر من ذلك بكثير ، إذ أن لديه الإرادة التي تدفعه إلى العمل ، وله الضمير الذي يرشده . لذا فلا يوجد قانون موحـــد يستلزم أن تمر كل حضارة وكل مجتمع بمراحل الطفولة والنضج والهرم والموت نفسها . « وفضلاً عن ذلك فما من أحـــد من أنصار هذه النظريات القديمة جداً قد بَيّنَ ما المقصود بطفولة المجتمع وهرم الحضارة ، وما خواص كل من هذين الطورين من أطوار العمر ، ومتى ينتهي أحدهما ويبدأ الذي يليه ، وما الذي يميت مجتمعاً مـــا وكيف يموت ، وماذا يعني موت المجتمع أو الحضارة . إن هذه النظريات متشابهة تماماً في كل هذه الأمور ، وهي مكوّنة من مصطلحات مبهمة لوحدة لا وجود لها ودعاوى لم يقم عليها دليل »[1] . فكما أن إبـــدال المرء بطراز معيشته طرازاً آخر لا يعني أنه مات، كذلك إبدال شكل جوهري من أشكال الحضارة واتخاذ شكل آخر مكانه لا يعني موت المجتمع والحضارة اللذين أصابهما هذا التغيير . إن الخطأ الأساسي الذي وقع فيه هذا العالم النحرير وأخذ يتخبط فيه هو أنه نظر إلى الحضارة نظره إلى آلة عضوية من نوع خاص ليس لها اتصال في أية نقطة بالحضارات التي سبقتها أو تلتها تاريخياً . إلا أن الحقيقة أبعد من ذلك بكثير . إن الحضارة ليست آلة عضوية ، وإنما هي

(١) P. A. Sorokin ، المصدر السابق ، ص ٢٤ .

حركة . وفي سجلات التاريخ شواهد وفيرة على أنه حتى حين يثقل المجرى الصافي لحضارة ما ، فإنه نادراً ما يجف ، بل يبقى يؤثر في أفكار الناس الذين يمثلون حضارة جديدة وسلوكهم . ولنقرأ شيئاً من كتاب (بريفو Briffault) المسمى (بناء الإنسانية : Making of Humanity

« إن العلم هو أعظم ما قدمته المدنية الغربية للعالم الحديث ، ولكن ثماره كانت بطيئة النضج . فلم يقم العملاق الذي ولدته الحضارة الغربية إلا بعد زمن طويل من زوال الحضارة البربرية (المغربية) وارتكاسها في الظلمات. وقد كان للمدنية الإسلامية مؤثرات أخرى عديدة أوقدت الشعلة الأولى في الحياة الأوروبية إذ بالرغم من أننا لا نجد ناحية واحدة من نواحي رقي أوروبا تخلو من التأثير الحاسم للحضارة الإسلامية ، فإن هـــذا التأثير ليس في أي مجال أظهر وأهم من نشوء القوة الدائمة التي تميز العالم الحديث والتي هي أعظم مصدر للانتصارات المتتاليـــة التي يحرزها ، ألا وهي العلوم الطبيعية والروح العلمية .

« إن ما نسميه علماً قـــد نشأ في أوروبا عن روح التتبع الجديـــدة ، وأساليب البحث المستحدثة ، وأسلوب التجربة والملاحظة والقياس ، وعن تطوير علم الرياضيات إلى شكل لم يكن للاغريقيين به علم . هذه الروح وتلك الأساليب كان الذين جاءوا بها إلى العالم الأوروبي هم العرب » .

لم يكن هذا التغير المفاجىء المذهل في الفكر العالمي من غير

سبب كاف. لقد كان مبعثه مؤثرات مستمرة للحضارة الاسلامية كانت تعمل عملها في الآخرين. كان الإسلام حين بدأ عصر النهضة في اوربا قد استنفد قوته، من الناحية السياسية على الأقل، ولكن كان لا يزال فيه من القوة ما يكفي لكي يصوّر شكل التفكير. فلقد ساعدت نظرة القرآن إلى الحياة أبناء هـذا العالم – مسلمين وغير مسلمين – على خلع رداء الخمول الفكري. إن تأكيد القرآن على النظر إلى آية الحقيقـــة الكبرى في (الشمس) و (القمر) وامتداد الظل، وتوالي الليل والنهار، واختلاف ألسنة النـاس وألوانهم وتعاقب اليسر والعسر بين الناس، جعل للمسلمين نظرة جديدة تماماً إلى العـالم، فأخذوا يعتقدون أنه كان متحركاً في نشأته وأنه عالم محدود وقابل للتوسع.

هذه النظرة إلى الحيـــاة أوجدت عدم اقتناع بالفلسفة التي تعتمد على التأمل وحده. فحيثما ذهب المسلمون حملوا معهم هذه الأفكار. فاتخاذ « الشك » أساساً للمعرفة – هذا المبـدأ الذي وضعه النـّظـّام، وتوسع فيه الغزالي – أثر تأثـــيراً كبيراً في اســـلوب (ديكارت Descarte) وأفكار (روجر بيكن Roger Bacon) في العلم، التي هي أوضح من آراء سميّه المشهور (فرانسيس بيكن Francis Bacon)، كان قد تعلّمها في الجامعات الاسلامية في الأندلس. والواقع أن الفصل الخـامس من كتابه Opus Majus) الذي يبحث في علم البصريات، هو في الحقيقة نسخة من كتاب (المناظر) لابن الهيثم. وكذلك ليس

هذا الكتاب ككلّ محتاجاً إلى دليل على تأثر مؤلفـــه بـ (ابن حزم) [1] .

ولم تجرؤ فلسفة غير الفلسفة الاسلامية على أن ترفع رأسها ، أيام كان المسلمون مسيطرين على العالم فكرياً وخلقياً وسياسياً . ولكن حين توقف أتباع محمد ﷺ عن إمداد نظامهم الفكري بغذاء جـديد من البحث ، بدأت تترنح شجرة المعرفة السامقة هذه التي امتدّت أوراقها إلى كل بقاع العـــالم وحملت أغصانها ثماراً ذهبية من الفن والعلم والأدب ، وتمزقت بالعواصف ولكنها لم تمت وظلـّت تؤثر في سير التاريخ .

ولقد كان من فضل تأثير الاسلام الطيّب أن ترك عبـــادة الأصنام حتى الذين تزعموا الدفاع عنها بحماس وقوة . وظهر بين المسيحيين مصلحون كثيرون .. واحداً بعـد الآخر .. سخروا من سلطة الكنيسة وأظهروا عـدم إيمانهم بالثالوث . وانحدرت موجة الحضارة الاسلامية هذه تجرف بقوة لا تقاوَم ، والعـــالم لا يستطيع أن يوقف مدّها بكل ما بذل من المحاولات الهادمة .

إن الحركات الإصلاحية في عصرنا هـــذا قد تبدو في مائة مظهر ومظهر من مظاهر التجديد ، لكن الذين أوتوا بصيرة نافذة يستطيعون أن يروا تيار الاسلام ينساب تحتها .

---

(١) Muhammad Iqbal ، المصدر السابق ، ص ١٢٩ . وتجـــد نصاً مشابهاً في ص ١٤٨ من الطبعة العربية المشار اليها آنفاً . (المترجم)

ومَن كان يهمّه أن يطـّلع على مثل هذه الدراسة فليرجع إلى كتاب (المدنيـة الاسلامية Islamic Civilization) تأليف (خـــدا بكس Khuda Bux) ، وكتاب (تراث الاسلام Legacy of Islam) تأليف (تومـــاس آرنولد Thomas Arnold)، و(الحضارة الاسلامية Muslman Culture) تأليف (في في بارتهولد V. V. Barthold)، و(أثر الاسلام في الحضارة الهندية Influance of Islam in Indian Culture) تأليف (دكتور تارا چاند Dr. Tara Ghand) فإنها ستعطيه فكرة عامة عن تأثير الحضارة الاسلامية في المدنية الحديثة .

وفي هـــذا الصدد يجدر بنا أن نتذكر أن غير المسلمين هم وحدهم الذين لم يتشرّبوا بروح الاسلام ، إذ انه حتى المسلمون قد تعلموا شيئاً كثيراً من غير المسلمين . إلا أن طريقـة الأخذ كانت تختلف من زمن إلى زمن ومن مكان إلى مكان . وما دام « الدين السماوي » الذي هو كل شيء في هذا الوجود عنـد المسلمين وغاية ما يطمحون اليه ، ومـا داموا يقومون بجهود مركـّزة صادقة لنشره .. وبعبارة أخرى .. ما دام هذا الدين باقياً قوة محركة وفيه قوة الحيـــاة وحماسها ، فإنه يستطيع أن يصبّ أفكار الآخرين في القالب الذي يلائم شكل تفكيره .

لقـــد كتب مستشرق اوربي قولاً قيّماً ، هو : « إن روح الاسلام واسعة جداً حتى انك لا تكاد تعرف لها حدوداً . فإذا استثنينا الأفكار الإلحادية وجدنا روح الاسلام قد استوعبت كل

الأفكار التي كانت موجودة عند الشعوب المحيطة بها ووجّهتهم وجهتها الخاصة في التطور والنمو » .

وروح الاسلام الاستيعابية أظهر من ذلك في مجال القانون . يقول البروفيسور (هيرغرونيه Hurgronje) الناقد الهولندي للاسلام : « عندما نقرأ تاريخ تطور الشريعة الاسلامية نجد علماء كل عصر يتهم بعضهم بعضاً لأتفه الأسباب ، حتى ليصل الأمر بهم إلى أن يكفّر بعضهم بعضاً ، ونراهم في الوقت نفسه — وهم يحسّون بوحدة هدف لا تفتأ تزداد قوة — يحاولون أن ينهوا ما كان بين أسلافهم من خلاف يشبه الخلاف الذي بينهم هم أنفسهم »[1] .

ولم تستطع هذه الحال أن تبقى زمناً طويلاً . فحين غفل المسلمون عن رسالتهم في الحياة ، وخمدت في أرواحهم النار المتأججة ، أو قل ، حين جرفت الحياة المادية بضجيجها وعجيجها جموع المسلمين ، وتحوّلت أنظارهم عن وجهتهم بفعل ضغط المطالب العاجلة ، نسوا الغاية السامية ، ففسحوا المجال لحلول عهد انحلال المسلمين وفلسفتهم ، وازداد ركود العالم الاسلامي وضعفت أفكارهم ولكنها لم تقبر قط .

لقد منح الله كل أمة عقلية مبدعة تعتمد حياتها عليها ، فحين

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٦٤ . وتجد نصاً مشابهاً في ص ١٨٩ من الترجمة العربية للكتاب . (المترجم)

تضعف هذه العقلية تنهار الأمة ، ثم يموت أفرادها بعد عدد من السنين ، ولكن أفكارهم تبقى مخفية في هذا العالم كجذوة النار التي لم تنطفىء بعد ، والتي يمكن إذا حركتَ الهواءَ فوقها أن تجعلها ناراً متوهجة .

إن كل حضارة تولد من بطن الماضي ، وتنمو في أحضان الحاضر . فالعالم لم يشهد قط ظهور حضارة ما فجأة ، من غير أن يكون لها علاقة بالماضي . إن هذا لا يمكن أن يحدث إلا حين يخلق مع مولد كل حضارة جديدة رجال جُدُد لهم صفات جديدة في العقل والقلب ولهم كذلك غرائز جديدة . وهذا شيء لم يحدث في الماضي ولا يمكن أن يحدث قط في المستقبل . فإنسان هذا العصر مخلوق من المادة التي خُلق منها الانسان الذي كان في عصور ما قبل التاريخ نفسها ، وطبيعته لم يحصل فيها تغير جوهري .

ولقد أوضح الدكتور محمد إقبال هذه النقطة بقوله : « يجب أن لا ننسى أن الحياة ليست كلها تغيراً بصورة مجردة وبسيطة ، فإن فيها أيضاً عناصر المحافظة والصيانة . وإن الانسان وهو يبدع ما يبدع ويوجه دائماً طاقاته نحو اكتشاف آفاق جديدة للحياة ، ليشعرُ بالقلق أمام ما يكتشفه . وهو في أثناء تقدمه لا يتمالك نفسه من أن يلتفت إلى الماضي ويواجه ما حصل له من اتساع داخلي في نفسه بشيء من الخوف . إن روح الانسان الداخلية تكون في أثناء تقدمها مقيّدة بقوى تبدو كأنها تعمل

في الاتجاه المعاكس . وليس هذا سوى طريقة أخرى للقول بأن الحياة تسير وثقل ماضيها على ظهرها ، وأنه عنـد النظر في أي تغير اجتماعي لا يمكن الإغضاء عن قيمــة قوى المحافظة وعملها »[1] .

إن الأخلاق الانسانية مبنيــة على القيم الخارجية للحياة ، وهي القيم التي ظلت دائماً نفسها على تقلّب الزمن . وهذه نجدها في طبيعة الانسان نفسها .

من ذلك كلّه نستنتج أن كل موجــة حضارية تسير سيراً متصلاً مع الزمن . ولكن ما من شك في أن التيار يضعف حين لا يأتيه إمداد على شكل تيــار فكري جديد . أما إذا كانت الأفكار الجديدة تتدفق فيه دائماً بقوة فتزيده شدة فإنه يستطيع أن يدوم زمناً لا نهاية له .

والخطأ الكبير الآخر الذي وقع فيه (شپنگلر Spengler) هو أنه ، مثل هيغل وماركس ، رأى للمجتمع نوعاً من التنظيم وبنى على هذه النظرية قوانين ازدهار الحضارات وسقوطها . إن أكبر أسباب هذا الخطأ هو الخطوات الهائلة التي خطاها العلم المادي في العالم . فلقد كان من أثر التقدم المادي أن صار حتى عامة النــاس يعتقدون أنه ليس وراء (المادة) شيء ، وأن

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٦٦ – ١٦٧ ، وتجد نصاً مشابهاً في ص ١٩١ من الترجمة العربية للكتاب . (المترجم)

(الوعي) و (الإرادة) كليهما شكلان متطوران من المادة . فأصبح الانسان بمقتضى هـــذه التعريفات العلمية المادية « مجرد مركب معقــد من الكهيربات والبروتونات على شكل مخلوق حيواني » .

إن هذه النظرات عن الحياة الانسانية قـــد تجاهلت تماماً جانبها الانساني . لقــد تصوّر مفكرو العصر الحديث ، ومنهم (شپنگلر) ، وهم في غمرة الهوَس الذي استولى عليهم في سعيهم وراء المعرفة العصرية ، أن المجتمع مجرد جهــاز عضوي حيّ ، وهو كائن يشبه في تركيبه وعمـــله ووحدته جهاز الانسان ، ولذلك فهو مُعَرّضٌ لقوانين مشابهة تحكم نموّهـــا ونضجها وتدهورها . ولكن أفراد بني الانسان ليسوا ، كما بيّنت آنفاً ، مجرد حطام طافٍ على محيط الضرورة ، يصعد وينزل مع مَدّ الظروف وجَزْرها الحتميين ، ويندفع هنــا وهناك مع تيارات الزمن .

لقد مُنح الانسان الارادة الواعيــة والقدرة على الاختيار ، فهو يستطيع أن يستغلّ البيئـــات لمصلحته الشخصية . لذا فالقوانين التي تسيطر على الانسان ــ الذي قد أُعطيت له حرية الإرادة ــ يجب أن تكون مختلفــة تماماً عن القوانين التي تتعلق بجوانب الحياة العضوية منه .

« إن المادة تسيطر عليها وتسيّرها قوانين رياضية وآلية ، وحياة النبات تسيّرها قوانين النمو ، وحيــاة الحيوان تسيّرها

الغريزة . أما حين يأتي الانسان إلى المسرح ويبرز العقل ، فإننا نلاحظ انتقالاً من الغريزة إلى الفكر . ومع الفكر يأتي امتياز الانسان وامتحانه وهما الأمران العجيبان جـداً اللذان يسميان الإرادة الحرة»[1]. لذا فيجب أن يحكم مصير البشر قانون آخر يختلف عن هذا القانون . والتاريخ مشحون بالأمثلة التي تدل على أن قوة الإرادة في الأفراد قد غيّرت مجرى التاريخ، وأن جهود البشر لم تقف عند النجاح في الأخـــذ بيد الحضارات العاثرة وإنقاذها من كبوتها ، وإنما تجاوزت ذلك إلى تقويتها بنفخ حياة جديدة فيها .

على أن الجانب الثاني من المشكلة أكثر خطراً . فإن اعتبار المجتمع والكائن العضوي وبني البشر مجرد خلايا قـــد أدّى إلى نتائج مريعة. فقد ألغى هيغل وماركس شخصية الفرد وأبعداها وراء المجتمع في مكان غامض ، وبذلك نفيا استقلال كيانه الفردي تماماً . وكذلك شپنگلر ، حـــين أقرّ بسيادة الحتمية في القانون الاجتماعي ، بنشر روح التشاؤم في العالم ، بـل وقصّ أجنحة الطموح الانساني أيضاً . إذ حين يكون على الأمم أن تمر بمراحل النمو والنضج والانحلال والموت كما يمر الأفراد ، فإن جهود الانسان مهما كان وراءها من عزيمة، يجب أن تتفق مع تلك القاعدة الجوهرية ، وإلا حكم عليها بالاخفاق . غير أن أي تحليل

---

(١) Dr. Khalifa Abdul Hakim , Islamic Ideologg , P. 62

دقيق سيظهر لنا أنه محاولة إقناع مغلّفة بالخداع تغليفاً واضحاً، ولا شيء غير ذلك . فالفرد ليس مجرد خلية في كيان الجماعة ، فهو لن يزول إذا فصل من كتلة الجماعة أو أقصي عنها. إن المجتمع إذا كان له حياة تسيطر على حياة الأفراد الذين منهم يتكون فإنها مع ذلك لا تكوّن حياتهم كلها. إنه إذا كان للمجتمع كيان يريد أن يثبته مستعيناً بحياة الفرد ، فإن للفرد كيانه الخاص الذي يريد أن يثبته مستعيناً بحياة المجتمع . لذا فإن فكرة أن «يفعل المرء ما يشاء» فكل أمة أو طبقة أو مدنية مقضيٌ عليها بالانحلال والزوال عاجلاً أو آجلاً ، إنما هي خرافة لا أساس لها ولا يسندها برهان ولا حجة راسخة لا تدحض . « إن هذه النظرة لا تنصف فردية الكائن الاجتماعي تماماً كما لا تنصف نظرية العقد الاجتماعي الطبيعة الاجتماعية . ومن التضليل أن نقول أن المجتمع وحده هو الذي يحيا ويتنفس في أفراده ، وإن شعورنا وإحساسنا ليسا غير تعبير عن شعور الجماعة وإحساسها . إننا يجب أن نجيب بأن المجتمع مهما كان لا يعيش إلا فينا ، نحن أفراده . ومن التضليل أن نقول : إن علاقتنا بالمجتمع كعلاقة الأوراق بالشجر أو الخلايا بالجسم . بل يجب أن نقول أن المجتمع لن يبقى له معنى كبير إلا إذا كان الأفراد أنفسهم حقيقيين . ومهما كان في التشابه العضوي من فائدة أدبية وايحائية فيجب أن لا تصبح في أذهاننا تفسيراً للعلاقة الأساسية في الحياة الاجتماعية وهي العلاقة بين المجتمع والفرد. لأن الكائن العضوي الحي، مثل

نظرية العقد الاجتماعي الفردي المعاكسة ، ينكر أحـــد طرفي العلاقة »[1] .

وقـد نتج عن اندماج الفرد في المجتمع هذا الاندماج الكلي عبادة الدولة والمجتمع والتضحية بالأفراد بوحشية وقسوة من أجل تمجيدهما . ان الفردية الروحية للإنسان وسلوكه الأخلاقي قـــد أخضعا تماماً للمتطلبات المادية البحتة لآلة جماعية تسمى المجتمع ليس الفرد فيها غير سنٍّ في دولاب . وهـذا لعمري هو الدودة التي تنخر في صلب كيان العصر الحاضر . فمن ذا الذي يستطيع أن ينكر أن هـــذه الحقيقة قد جاءت بعهد من الإفلاس الخلقي والروحي وزوال الأخلاق من السياسة .

وهذا الانحطاط ظاهر في سلوك الأمة وواضح أيضاً في الحياة الخاصة والشخصية لأي رجل من أوساط الناس. إذ ما من قاعدة «توَجّهُه» فروح الانسان الحديث تقاس بالمال لأن إلهه هو الدولار القدير . إن البعثات التبشيرية ترسل إلى أماكن بعيدة عن بلادهم كي يبقى العدل وتدوم الحرية في العالم ، ومع ذلك فهؤلاء الناس أنفسهم يهملون في بلادهم أسس العدالة وجذور الحرية ولا يستطيع أحد أن ينكر أن المسائل الاقتصادية قـــد غطت على المسائل الأخرى ، وأن الإيمـــان بالحياة بعد الموت قد زعزعته المقاصد والأغراض الأخرى وصارت الجنة على حد تعبير الكاتب الصيني

---

(١) Maclver & Page , Society , P. 44

الشهير لينيوتونغ Linyutong « مخزنـــاً محفوظاً من السمنت المسلح مملوءاً حتى سقفه بالمطلبات »[1] .

لقد صار الانسان عبداً مملوكاً لمصالحه الذاتية . وقد وصف مؤرخ حديث مشهور آثار هذه النظرات الخاطئة عن العلاقة بين الفرد والمجتمع فقال : « ليس المرء في هـذه النظرة إلا جزءاً من المجتمع وهي لا ترى أن المجتمع إنمـــا هو من أجل الافراد . لذا فالأمر المهم الخطير في حياة البشر ليس تنمية الأرواح ، وإنمـــا تطوير الحياة العامة للمجتمعات . وفي رأي الكاتب ليست هذه الفكرة صحيحة وإنها حين عُدّتْ صحيحةً وطبقت برهنت على أنهـــا تنطوي على فظائع خلقية ... ومن الناحية الدينية تُعَدّ معاملة الفرد معاملة جزء من المجتمع فقط نكراناً للعلاقة الشخصية بين الروح والخالق وعبادة للمجتمع الانساني من دون الله »[2] .

إلا أن نقطة مهمة يجب أن لا تغيب عن بال القارىء ، تلك هي أن مولد الحضارة وازدهارها وانحطاطها كلها ألفاظ نسبية ، إذ لا يمكن أن تكون فكرة للتقدم بلا مثل أعلى ، وكل امرىء يعلم أن المثل الأعلى يختلف من إنسان إلى آخر ومن أمة إلى أمة . فالمسلم يرى أن عصر الرسول الكريم محمد ﷺ والخلفـــاء الراشدين الأربعة من بعده كان أوج الحضارة الاسلامية ، ولكن غير المسلمين يرون أن الحضارة الاسلامية بلغت قمة مجدها حـين

---

(١) Between Tears & Laughters , P. 62

(٢) Arnold Toynbee ، المصدر السابق ، ص ٢٥٤ .

ظهرت فيهـــا الفنون الجميلة وضمت إلى رقعتها أقاليم أُخرى واستبدلت بحياة البساطة والاستقامة والصدق والتقوى حيـاة طافحة بالمـلذات والترف والقوة والعظمة الدنيوية . وأن المؤمن ليرى أن هذا العصر بالذات هو أكثر العصور دقـــة وحَرَجا بالنسبة للمسلمين والاسلام . إن (الفكرة) هي دائماً المؤشر وهي وحدها تعين اتجاه نشاطنا وتبين مقدار قيمة ما ننجز من عمل . ويمكن تقرير ارتقاء الحضارات وسقوطها وفقاً لوجهتها . ولكن حـين يختلف المثل الأعلى باختلاف الافراد ، فكيف يمكن أن نضع مقياساً واحداً نحكم به على الفترات المختلفة من حياة حضارة معينة ؟ لقد أشار بروفيسور (ماك آيفر Mac Iver) في كتابه (المجتمع Society) إلى هذه الناحية ، إذ ذكر أن أحد الاجتماعيين يعـد تقدم الفرد اجتماعياً هو « اداء الشخصية المتكاملة لوظيفتها اداء كاملا » ، ومن ثم ينتقل إلى تعريف التقدم الاجتماعي بأنـه يتكون من « التغيرات التي تحصل في تكوين المجتمع فتجعل اداء الانسان لوظيفته human functioning حراً من أي قيد ، وتستثيره وتسهّله وتكوّن منه وحدة متكاملة » . ولكن أي حل من هذا القبيل ، إنما هو حل ظاهري لا حقيقي . فالتعبيران (اداء الوظيفة اداء كاملا) و (اداء الانسان وظيفته) هما مِثلُ تعبير (التقدم) نفسه ، ليسا رمزاً لمعنى معين وإنما وعائين لفظيين يضع فيهما كل من يستعملها معنى غير الذي يضعه غيره »[1] .

---

(١) MacIver ، المصدر السابق ، ص ٦١٢ .

وحتى هنا فإن القضية لا تنتهي ، فالاختلاف بين مختلف الاشخاص لا يقتصر على مثل الأعلى، ففكرة التقدم نفسها تختلف في أهميتها باختلاف الاشخاص والأزمان ، والفئات الاجتماعية . ففي القرن الثامن عشر كان لفظا (التنوُّر) و(التقدم) يعنيان الانطلاق من قيود التقاليد وطغيان السلطة . أما في أمريكا في أواخر القرن التاسع عشر فكانا يبدوان وكأنهما يعنيان الكشف عن الخيرات المكنونة في الأرض .

فلسفة هيغل للتاريخ

يمكن تعريف فلسفة هيغل التي يُدين لهـا ماركس بالشيء الكثير بأنهـا (مزيج المتناقضات) . فهو يرى أن كل عصر أو فترة أساسية في تاريخ الحضارة الاجتماعية يمثـل وحدة مستقلة . وإن ملامحه السياسية والاقتصادية والأخلاقية الاجتماعية العـامة والجمالية والعقلية والدينية كلها جوانب أو نواحٍ المجموع الحيّ (Living Totaliy) ، ومنها جميعاً يتكوّن كيان متجانس . « وإن كل فترة أساسية تنمّي فكرتها الرئيسية إلى الحد الأقصى ثم تولد أضدادها أو نقائضها » .

ويستمر الصراع دائماً ، فتتحد المبادىء المتناقضة في وحدة عليا هي (المـُوَحـَّد) ، وهذا المـُوحـَّد يندفع مرة ثانية إلى الحد الأقصى وينشب صراع جديد فيتولد حينئذٍ مرة أخرى مُوَحـَّد يحوي ما هو فعـّال من كل من الفرضية ونقيضها . وبهذا الاسلوب الثلاثي تتقـدم الفكرة حتى نصل آخر الأمر إلى (المـُطـْلـَق) الذي نستطيع أن نبقى نتأمله إلى الأبد دون أن نتبـّين فيه أي

تناقض . ويمكن توضيح ذلك بعدة أمثلة :

« أعلنت اليونان القديمة ديمقراطية محدودة تعني أن بعض الناس ، وهم كل طبقة المواطنين [١] ، أحرار . وبهذا اكتشفت أثينا مبدأ الفردية والحرية المقيدتين . وإذ دفعت الديمقراطيات اليونانية مبدأ حرية الفرد إلى حد الأنانية المستقلة ، فإنها حطمت بذلك وحدة كيان دولة المدينة (City State) . وقامت روما فأعلنت مبـــدأ عالمية الشخصية ان الفردية شخص ، كمواطن لامبراطورية عالمية . ولكن روما لم تسلّم بأن الفرد من حيث كونه كائناً ذا روح حرٌ فقط من حيث كونه مواطناً. والمسيحية التي قامت في الامبراطورية الرومانية أعلنت ، بفكرتها عن الإله البشر ، الاتحاد الشامل بين الفرد المستقل والروح العـامة . لقد حققت الشعوب الجرمانية هذا المبدأ أول مرة فيالنظام السياسي الاجتماعي . فكل الناس فيه أحرار من حيث كونهم أشخاصاً ، ولكنهم إذ يكونون أشخاصاً فمعنى ذلك أن يكونوا أعضاء في الدولة التي هي الوحدة الجامعة التيتحمي وتغذي الاسرة والمجتمع المدني والكنيسة والحضارة . فالدولة بلا أعضائها تجريـــد غير غير واقعي. والفرد لا يكون إنساناً ما لم يعمل بتماون باعتباره عضواً في الدولة » [٢] .

---

(١) طبقة المواطنين عند الاغريق هي طبقة الأحرار من السكان .
(المترجم)

(٢) Leighton, Social Philosophies in Conflict, p. 75.

وهذه الجماعية التي ظهرت في القرن التاسع عشر لا تعدو أن تكون رد فعل للفردية . وهي – حسب ما يرى هيغل – خير وأكثر انطباقاً على الحقائق ، إذ انها تتضمّن العناصر الفعّالة من الفردية أيضاً . وفي كل حالة تظهر من التقاء الاتجاهات المتضادة نتائج مثمرة .

وهكذا نجد أن جوهر التطور على رأي هيغل ، إنما هو نتيجة صراع المتناقضات ، على أساس أن كل ظاهرة تحتوي تناقضاً داخلياً يدفعها إلى الأمام ويؤدّي بها آخر الأمر إلى تحطّمها وتحوّلها إلى شيء آخر . إلا أن تحطم ظاهرة ما إنما هو الفرصة لانبثاق ظاهرة جديدة تدفع بلا شك الظاهرة السابقة ، ولكنها في الوقت نفسه تحتوي في ذاتها على كل عناصرها الفعالة . وبهذه الطريقة يتحول النظام الفلسفي إلى نظام آخر [١] .

وإن كل فيلسوف سبق هيغل اعتبر نظامه حقيقة مطلقة ، وكل ما سبقه من أنظمة مجرد أوهام خدّاعة ، ولكن هيغل أظهر أن هذه النظرة تتسم بالسذاجة ، وأن كل نظام فلسفي خطوة في تطور الروح المطلقة [٢] . وهذه الروح في كل حقبة من حقب التاريخ تتوصل إلى إدراك ذاتها بشكل فلسفة محددة تطابق

---

(١) يقصد هيغل بالنظام الفلسفي Philosophic System الحقائق والأسس والقواعد التي ترتبط بفترة تطورية معينة من التاريخ . (ي. خ)

(٢) Absolute Spirit .

المحتوى التاريخي لمرحلة التطور تلك. ولكن هذا الشكل يظهر في حقبة أخرى شكلاً قديماً ويخلي مكانه لخليفته الذي يزيحه دون ريب ، ولكنه يحتوي أيضاً في ذاته على ما في الفلسفة المندحرة من نواحٍ فعّالة .

ثم إن هيغل يدّعي أن الصيرورة ليست متروكة « للمصادفة والأسباب العارضة » بل إن وراءها (إرادة مخطّطة) ، وأن هدف هذا الصراع والتوفيق إنما هو تطوير (روح العالم) [1] التي تتجه دائماً نحو غايتها ، ألا وهي تحقيق الذات Self-Realization .

يقول هيغل : « إننا نستنتج مجرد استنتاج من تاريخ العالم أن تطوره كان دائماً صيرورة عقلية [2] ، وأن هذا التاريخ قد أنشأ الطريق المنطقي الضروري لروح العالم . تلك الروح التي طبيعتها دائماً واحدة لا تتغير ، والتي تعرض هذه الطبيعة في ظواهر وجود العالم » [3] .

لذا « فإن تفسير التاريخ هو بيان لعواطف البشر وعبقرياتهم وقواهم الفعالة التي تؤدّي دورها على مسرح العالم الكبير ، وإن

---

(١) هي الروح المحركة لهذا العالم ، وهي الله أو المطلق كما يتصورها بعض الفلاسفة . (المترجم)

(٢) يقصد بالصيرورة العقلية الحركة الفكرية نحو الأعلى . (ي. خ.)

(٣) J. Sibree, Hegel's Philosophy of History, p. 11.

الصيرورة التي تقررها المشيئة السامية المهيمنة والتي تعرضها تلك العواطف والعبقريات والقوى الفعالة ، هـذه الصيرورة تكوّن ما يسمى بصورة عامة خطة المشيئة العليا » [1] .

قد يبدو لذي النظر السطحي أن الناس أحرار في أن يعملوا ما يشاؤون كما يريدون ، وأن أعمالهم تنبعث عن ما يشعرون به من حاجات وعواطف وعن ما يتمتعون به من مزايا ومواهب ، ولكن هيغل يرى أن هـذا تصوُّر شديد الخطأ عانى منه البشر الكثير منـذ زمن سحيق . فهذه الأعمال جميعاً تتمُّ بأمر (روح العالم) ، « وهذه المجموعة الكبيرة من الرغبات والميول والنشاط تؤلف الأدوات والوسائل التي تستعين بهـا (روح العالم) لكي تبلغ غايتها ، وهي التي ترقى بهـا (أي بالروح) إلى الوعي ، وهي التي تجعلها حقيقة في عالم الوجود » [2] .

وكذلك فإن أهداف كل العظماء تدخـل فيها تلك القضايا الكبار التي هي إرادة (روح العالم) . « إنهم قد يسمون أبطالاً من ناحية كونهم قـد استمدوا غاياتهم ودعوتهم لا من الأوضاع الاعتيادية الهـادئة التي يقرُّها النظام القائم ، بل من مصدر خفي » [3] .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٤ .
(٢) » » ص ٢٦ .
(٣) » » ص ٣١ .

إنهم ربما يعتبرون أنفسهم رجالاً أحراراً يستمدون باعث حياتهم من أنفسهم ومما يشعرون بـه شخصياً من أنواع الاهتمام والميول، ولكن الحق أنهم جميعاً دمى في يَدَيْ (روح العالم). فهم يجهلون تماماً الفكرة العامة التي يعرضونها عندما يسعون وراء تحقيق أهدافهم تلك . والحق أن عظمتهم ليست إلا في أن لديهم البصر النافذ الذي فيـه من العمق ما يكفي لأن يدركوا متطلبات الزمن .

« وكان مما امتازوا به أنهم عرفوا هذا المبدأ الناشيء ، وهو الخطوة الضرورية التي ستلي مباشرة في طريق التقـدم التي قُدِّرَ للعالم أن يخطوها ، وإن جعلوها هدفهم وبـذلوا طاقتهم في انجاحها »[1] .

إن المسألة هي مـا الذي يميز هؤلاء الأبطال ممن سواهم من عامة الناس . الفرق الوحيد الذي يبينه هيغل هو صفاء النظر . فهم يسمعون نـداء (روح العالم) بوضوح أكثر من بقية الناس . والنتيجة المنطقية لهـذا أن هؤلاء الأبطال يجب ألا يعيروا سمعاً لنصح الجماهير لأن الجماهير لم توهب الذهن الصافي الذي يلتقط إشارات (الروح) :

يقول هيغل : « لذا فإن الرجال الخالدين في تاريخ هـذا العـالم ... ابطال عصر من العصور ... يجب أن يُعترَفَ لهم

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

بصفاء البصيرة ويعترف بأن أعمالهم وأقوالهم خير أعمال ذلك العصر وأقواله . لقد كوّن العظماء أغراضاً يُرضُون بها أنفسهم، لا الآخرين . ومهما كانت الخطط الحكيمة والنصائح التي ربما يكونون قد تعلموها من الآخرين، فإنها تكوّن في سيرتهم العملية ملامح أضيق حدوداً وأشد تنافراً ، لأنهم هم أنفسهم يفهمون الأمور أحسن مما يفهمها الآخرون ، الذين يتعلم بقية الناس منهم ويؤيدون سياستهم أو ، في الأقل ، يذعنون لها . إذ أن تلك الروح التي خطت هذه الخطوة الجديدة في التاريخ هي الروح التي تسكن أعماق كل فرد ، ولكن في حالة من الغفلة وعدم الوعي ، فيوقظها هؤلاء العظماء الذين نتحدث عنهم . لذا فإن أصحابهم يتبعون قادة الروح هؤلاء ، لأنهم يشعرون بأن قوة أرواحهم أنفسهم ، هذه القوة التي لا تقاوم ، قد تجسدت بهذا الشكل »[1] . لذلك فهم معصومون من الخطأ وأعمالهم فوق كل أنواع النقد ، وكل ما يفعلونه سلوك حميد لأنهم عظماء ، وقد أرادوا شيئاً عظيماً ونفذوا إرادتهم وفقاً لحاجة العصر . وإن أعمالهم العظيمة هذه لها أهمية كبيرة تجعلها أسمى من أن توزن ميزان الفضيلة والأخلاق الحميدة . يقول هيغل: «بل أنه ليمكن لمثل هؤلاء الرجال أن ينظروا إلى المصالح العظيمة الاخرى.. وحتى المقدسة منها بدون اكتراث . وذلك تصرف يعرّض أصحابه إلى

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٢ .

تأنيب الضمير . ولكن هذا الشكل ذا القوة الكبيرة، لا بدّ أن يدوس الكثير من الازهار البريئة — ويحطم الكثير من الاشياء التي تقف في طريقه »[1] هؤلاء العظماء وحدهم يعرفون ما هو الشر وما هو الخير وأعمالهم تحمل ختم المصير المطلق المتعالي .

يعتقد هيغل إن هذه الفكرة عن الاخلاقية تحل أحد الالغاز الكبرى في حياة البشر ، وهو أن الطيب التقي غالباً ما ، أو كثيراً ما ، يعيش عيشاً نكداً في هذا العالم ، أما الخبيث الذي يميل إلى الشر فيعيش سعيداً منعّماً . فهو يرى أن الانسانية إذا أخلصت نفسها لهدف واحد ووجّهت جهودها إليه غير آبهة بكل ما سواه فحينئذٍ لا يمكن أن يعتبر ما يسمى « تعسا أو منعما من الافراد القلائل النادرين عناصر أساسية في النظام المنطقي المحكم الذي يسير عليه العالم . وكل ما هو مطلوب إنما هو أن يتحقق هذا الهدف العظيم . وإن الناس ليشعرون بعدم الرضا لمجرد أنهم لا يجدون الحاضر ملائماً لتحقيق الاهداف التي يعتقدون أنها حق وعدل »[2] .

والأمر الثاني الذي يجب بحثه : ما هو الشكل الذي به يمكن تحقيق الهدف العظيم ؟ يخبرنا هيغل بأنه الدولة، ولكنها لا تعني عنده السلطة الملزمة التي تكون قانوناً فوق كل فرد أو جماعة

---

(١) المصدر نفسه ، ص ٣٤ .

(٢) المصدر نفسه ، ص ٤٠ .

وتكون جزءاً من المجتمع . إنها الشكل الذي تتخذه الروح إذ تتجسد تجسداً كاملاً ، «وهذا هو اتحاد الذاتي مع الإرادة العقلية ، إنها الكل الاخلاقي ، الذي هو ذلك الشكل من الحقيقة الذي فيه يكون للفرد حرية يتمتع بها . . ولكن بشرط أن يعترف بالأمور المشتركة لهذا (الكل) ويعتقد بها وتتجه إرادته نحوها . إن الإرادة الذاتية والاندفاع الذاتي يحركان البشر ويدفعانهم إلى النشاط ، الذي يحقق « الوجود العملي » . إن الفكرة هي المنبع الداخلي للعمل ، والدولة هي الحياة الخلقية المتصوَّرة التي توجد حقيقة في عالم الواقع . لذا فكل ما لدى الأفراد من أخلاق ، إنما حصل لديهم بهذه الطريقة فقط . إنها في الحقيقة فكرة الروح ظاهرةً في المظهر الخارجي للإرادة الإنسانية وحريتها. ويعرّفها هيغل بأنها « فكرة إلهية » ، لأنها توجد على الأرض[1] .

هذه بصورة مختصرة فلسفة التاريخ كما عرضها هيغل .

إن الإنسان المتوسط الذكاء يقرّ بأن كل شيء مدين بوجوده إلى نقيضه ، وبأن بين الميول والإتجاهات المتضاربة صراعاً أبدياً ، وبأنه حين يحقق نظام اجتماعي ما كل ما فيه من إمكانيات يبدأ بالانحلال ، وتتولد من باطنه نفسه قوى تحطمه تحطيماً وتقيم أنظمة جديدة على أنقاضه . ولكن هيغل يتوسع في ما يدّعيه أكثر مما يجب . إنه يعتقد أن بين النقائض صراعاً وتوفيقاً دائمين ،

(١) المصدر نفسه ، ص ٤٠ .

وأن الموحِّد يحتوي على العناصر التي لا تزال فعّالة من كل من الفرضية ونقيضها ويقرّبنا خطوة واحدة من الحقيقة [١]. ونحن إذا حللنا خط المناقشات عن كثب وجدنا أن هيغل، على شدة ذكائه، لا يفرق بين ما هو نقيض وبين ما هو واضح متميز. يقول كروجي بهذا الشأن: «من ذا يستطيع أن يقنع نفسه بأن الدين هو انعدام الفن وإن الفن والدين ما هما إلا تجريدان ليست لهما حقيقة إلا في الفلسفة، موحِّدِ الاثنين، أو ان الروح العملية هي نفي للروح النظرية، وأن المحسوس نفي للحدس وأن المجتمع المدني نفي للأسرة وأن السلوك الخلقي نفي للحقوق، وإن كل هذه التصورات لا يمكن التفكير فيها خارج نطاق مُوحّدها الذي هو الروح الحرة والفكر والنزعة الأخلاقية للدولة، بنفس الطريقة كالوجود وعدمه، التي لا تصدق إلا بالصيرورة فقط» [٢].

إن منطقة الحدود بين الفرضية ونقيضها فيها من التداخل والاتصال الوثيقين بينهما ما يجعل رسم خط فاصل بينهما أمراً مستحيلا. وأشد ما يكون هذا تعذّراً في الحركات التي ليست لها صفة الثبات، وإنما هي متحركة دائماً. ومهما بلغ المرء من الذكاء فلن يستطيع أن يقول جازماً: هذه هي نهاية الفرضية وإن

---

(١) لا يقصد هيغل بذلك الحقيقة المادية بل المطلق الذي تنحل فيه جميع المتناقضات (ي. خ).

(٢) Benedetto Croce, What is Living And What is Dead of The Philosophy of Hegel, P. 97.

الخطوة التالية تكون في عالم النقيض، إذ ليس بينهما خط حدود واضح يفصل الواحد عن الآخر . ربما يكون فرق في الدرجة ، ولكن لا في النوع .

إننا إذا اعتقدنا بأن النقيض يتولد من باطن الفرضية نفسها أدى بنا ذلك إلى أن نعتقد بأن النقيض هو ضد الفرضية في كل ناحية . وهذا يعني أنه ليس بين النظامين شيء مشترك . وحين تكون الحالة هكذا فكيف يكون ممكناً أن تذوب الفرضية تماماً في خصيمها ؟ ان الامتزاج بينهما لا يكون ممكناً إلا حين يكون بينهما شبه . فـــإذا فرضنا أن بينهما حقاً بعض العوامل المشتركة لم يكن حينئذٍ أن نسميهما نقيضين، لأن النقيضين يجب أن يكونا مختلفين في ما بينهما من كل وجه . إن التوفيق بـــين الفرضية ونقيضها ناتج عن الحب لا الصراع .

أما قول هيغل بأن النقيض لا ينفي إلا النواحي الناقصة من الفرضية فإنه يؤدي إلى سوء فهم آخر . إن هذه الفكرة تجعل المرء يستنتج أن الصراع بين المتناقضات منطقي تماماً وتقوم على إنجازه الحكمة الواعية التي يتمتع بها الافراد . إلا أن هيغل، على العكس من ذلك، يقول أن الافراد ليس لهم في الخطوط العريضة من التطور التاريخي إلا معلومات بسيطة جداً عما يقومون به فعلاً ، إذ أن كلهم أدوات فقط وليسوا سادة هـــذه الصيرورة التاريخية . فهذه الصيرورة صيرورة لا شعورية بالنسبة للأفراد .

والسؤال الذي يبرز هنا هو : إذا كانت كل حوادث العـــالم

ليست نتيجة إرادة الافراد الواعية فكيف تم القيام بها ؟ » إن هيغل لا يعطي جواباً معيناً عن هذا . بل إنه ليبدو كأنه يقول ليس الأمر المهم هو كيف تم القيام بها ، وإنما إلى أي حد تبدو هذه الصيروة اللاشعورية ، حين نلتفت إلى الوراء لننظر إليها ، منطقية ممكنة التصوُّر . وهو يتحدث عن كل هذا التطور كما لو لم يكن من عمل القوى العقلية لاي شخص وهو مع ذلك من عمل (العقل عموماً) . كأن الافكار يمكن أن تؤدي عملها دون أن تكون هذه الافكار في عقل أي شخص »[1]. هذه الطريقة من الكلام ليست سوى اضفاء الارتباك والإبهام على الكلمات .

إن الافكار ليست مجزأة إلى أجزاء واضحة التقسيم ، بل إن كل فكرة وحدةٌ قائمة بذاتها يستحيل أن تقسم أقساماً مختلفة ، لذا فليس من أساس لما يُدّعى من أن نتيجة التوفيق بين الفرضية ونقيضها – وهي النتيجة التي تُسمّى الموحـــد – والتي (أي النتيجة) هي الفرضية الجديـــدة ، تضم بعض العناصر وترفض الاخرى . ونريد أن نوضح ذلك بمثال :

تمخضت الفرضية (أ) عن نقيضها (ب) . إن للفكرة (أ) حسب رأي هيغل جوانب عديدة هي: (أ ١) ، (أ ٢) ، (أ ٣) (أ ٤) ، (أ ٥) . ومن هذه الخمسة ثلاثة أصبحت باطلة هي : (أ ١) ، (أ ٢) (أ ٣). أما (ب) التي هي النقيض فإنها تخالف

---

(١) Lindsay , Karl Marx's Capital , P. 20

ثلاثة أجزاء فقط وتحتضن القسمين الآخرين : (أ ٤) ، (أ ٥) . وهـــذا يعني أن (أ ١) ، (أ ٢) ، (أ ٣) التي رفضها (ب) هي العناصر المخالفة. ولو لم يكن الامر كذلك لسمح (ب) لهم أيضاً بالانضمام إليه . إن (ب) لا يقبل (أ ٤) و (أ ٥) إلا على أساس أن بينهم شيئاً مشتركاً . فيكون الحال الآن هذا :

(ب) نقيض (أ) .

(ب) نقيض (أ ١) ، (أ ٢) ، (أ ٣) لانه ينافيهم .

(ب) نقيض (أ ٤) و (أ ٥) لانه يتفق معها .

وهكذا يتبين لنا أن الفكرة (أ) نفسها خليط من فكرتين متصارعتين كل منها مجزأة إلى أقسام مختلفة . فهل يمكن تصور ربط هذه الاقسام المتخاصمة في فكرة واحدة ؟ أن هذا التصور لا يقدر عليه إلا رجل من عيار هيغل .

ثم هنالك ناحية أخرى من عدم الاستقامة في حجج هيغل . فهو يعتقد أن كل عهد يأتي يكون أرقى من العصر الذي سبقه، لان الفرضية ونقيضها ومُوحّدَهما ما هي إلا أشكال التطور أو مراحله. إن الموحد الذي هو نتيجة التوفيق بين العناصر الصحيحة الفعّالة من الفرضية ونقيضها يجب بالضرورة أن تخطو خطى واسعة إلى الامام . وكذلك يعتقد هيغل أن كل عهـــد يمثل وحدة لانه مظهر لشيء واحد فقط ، ألا وهو (روح العالم) . ويتضح من ذلـــك أن الحضارة التي هي الكل المركّب complex whole المؤلف من المعرفة والعقيدة والفن والاخلاق

والقوانين والعادات يجب أن تليها حضارة أحسن منها . وللمرء أن يتخذ أي مقياس للتحسّن ، ولكن التقـــدم أمر حتمي ومستمر،وإن مستوى الاوجه المختلفة للحضارة في رقي لا سبيل إلى مقاومته . وكذلك فإن (روح العالم) التي تتجه دائماً نحو الكمال يجب عليها أيضاً أن تقوم بالتوسع والامتداد داخل الرداء الذي ارتدته. لذا فإنه مع تكشّف الحجاب عن (روح العالم) يجب أن يحصل أيضاً تحسّن في أساليب حيـــاة البشر وطرق تفكيرهم وفنهم وأدبهم ودينهم وحق وسائل ترفيههم وتسليتهم. ولكن في سجلات التاريخ تحدّياً جريئاً لهـذه الحقيقة التي هي النتيجة الطبيعية التي تؤدي إليها طريقة هيغل الديالكتيكية[1]. فليس في الوجود نمو متناسق يتبع نظاماً اعتيادياً لا شذوذ فيه، ويمكن نقله من شعب إلى شعب في هـــذا العالم . وإن تطورها « ليس على خط واحد أو تراكمياً ، وإنما هو يحدث أحياناً . . في

---

(١) نقصد بالديالكتيك المنطق الذي استخدمه هيغل في ما يتعلق بما وراء الطبيعة ، ولتفسير الصيرورة المهيمنة على الكون ككل ، وكذلك الصيرورة المتجسدة في الأنظمة الإجتماعية . أما قاعدة الديالكتيك تبعاً لرأي هيغل فهي إن لكل فرضية نقيضاً ، ومن اتحـــاد الفرضية والنقيض في مرحلة من مراحل الصيرورة يتكون عندنا الموحد الذي سرعان ما ينقلب إلى فرضية تثير نقيضاً ، وهكذا . و (ديالكتيك) من الناحية اللغوية تعني الجدل وفن المخاطبة . ولكن هيغل أعطاها مفهوماً فلسفياً جديداً . لذا فالأفضل الإبقاء على لفظ هـذه الكلمة كما استخدمها هيغل وذلك لتميزها من المعنى المألوف لكلمة (ديالكتيك) الذي هو الجدل أو فن المخاطبة (ي. خ) .

سلسلة من الارتفاعات تشبه البثقات التي ليس لهـا إلا القليل من الاستمرارية ، إلا في حـدود تأثرها بالطرق الأسلوبية في التعبير طبعاً » (١) .

لقد دحض بعض الناس هذه الحجة بقولهم : إنه قـد حصل حقاً إتساع مستمر في وسائل الراحة المادية بدأ منذ وقت لا تعرف حدوده ، لذا فإن هيغل الحق في ما ادعاه. ولكنهم مع الأسف خلطوا بين الحضارة والمدنية ، فلم يدركوا أن « الحضارة لا تمثل أحدث الأساليب المتبعة في الحياة العامـة ، لا سيما في الأمور الظاهرية من الحياة — في اللباس ، والتقاليد المتبعة في غرفـة الاستقبال ، وفي وسائل الترفيه المادية ، وفي ما أشبه ذلك من علامات الطلاء الزائف أو الخارجي . إن هـذا الوضع أو الحالة قد تكون مظهراً كاذباً مفتعلاً ، وليس لزاماً أن يكون ذلك ممثلاً لحالة عقلية راقية » (٢) . إن الحضارة تتعلق بحـالة العقل . لذلك فليس لها صفة التراكم وتكديس الأشياء كالمدنية . بل إن على كل جيل أن يكتسبها من جديد . إن الموضوع ليس مجرّد وراثة . وليس من شيء يناقض كون « حصيلة الماضي هي أساس مـا نحققه في الحاضر ، ولكن ما من شيء يضمن أن يكون الحاضر مساوياً للماضي فضلاً عن أن يكون خيراً منه » .

---

(١) Ginsberg , Sociology , P. 46

(٢) Dr. Sayyed Abdul Latif, Islamic Culture Studies , PP. 4 – 5

هذه الحقيقة ما من شيء يناقضها حتى في أمر الحضارة . ولا يوجد امرؤ له ذرة من عقل يستطيع أن ينكر أن الرجل الحديث حتى بعد مرور ألف من السنين على حصوله على الانتصار الرائع على الزمان والمكان لا يزال في قبضة الأنانية وضيق أفق العقل. لقد عرض بروفيسور آرنولد توينبي المؤرخ الشهير المعاصر هذا الصراع في كلمات قوية جداً ، فقال : « لقد ارتقى علمنا فبلغ درجة من الشعور الإنساني لم يسبق له أن بلغها . فقد أُقِرّت الحقوق الإنسانية للبشر جميعاً مهما كانت الطبقات والأمم والعناصر التي ينتسبون إليها ، ومع ذلك فقد انتكسنا في الوقت نفسه في الحروب الطبقية ، والقومية ، والعنصرية إلى أعماق قد لا يكون سمع بها أحد قبلنا . وهذه المشاعر السيئة تجد لها متنفساً في أعماق القسوة الغليظة المصممة علمياً ، وإنك لتجد في هذه الأيام الحالتين الفكريتين المتباينتين ومقياسي السلوك المختلفين يعيشان متجاورين في العالم نفسه، بل في البلاد نفسها في بعض الأحيان وفي النفس الواحدة . ثم أن لدينا قوة في الإنتاج لم نصل إليها من قبل ، وهي توجد إلى جانب نقص وعدم كفاية لم نُعانِ منهما من قبل .

لقد اخترعنا الآلات لكي تعمل عنّا، ولكن العمال الفائضين الذين نريد استخدامهم في أعمال الخدمة الإنسانية — بل للخدمات الأساسية الأولية كمساعدة الأمهات في رعاية أطفالهن — أصبح عددهم أقل مما كان . إن ما لدينا هو أن البطالة المنتشرة يحل

محلها دائماً وبصورة ثابتة نقص هائــل في اليد العاملة ، ولا شك في أن التضـارب بـين أفقنا التاريخي المتوسع ونظرتنا التاريخية المتقلصة هو من ميزات عصرنا هــذا . ومع ذلك فإذا نظرنا إلى ذلك من حيث ذاته ،فما أعجب التناقض الذي سنجده فيه »[1] !

إذا اعتقدنا أن الموحّد الحضـاري لعصرنا هذا ناتج ثانوي الدم السليم النقي لكل الحضارات السابقة التي عرفها الإنسان حــتى الآن فــلا ريب في أنه يجب أن يكون أحسنها وأكملها من كل الوجوه . لكننا نجد الحقيقة مخالفة لذلك تماماً. فعصرنا عصر قد ترابط فيه الانحطاط الخلقي عند الناس مع ازدياد التقدم المادي. فكيف يستطيـع هيغل وأتباعه أن يوفـّقوا بين هذين الإثنين ؟

وتخالف ذلك مغالطة أخرى، فإن هيغل يعتقد أن صيرورة الزمن تتجه من الأدني إلى الأكثر كمالاً . . بالمعنيين الخلقي والمنطقي. إن (روح العالم) تتجه نحو تحقيق الكمال ، ولكنها لم تبلغ بَعدُ هدفها . وربما لن يمكن لها ذلك ما دام هذا الوجود . فحق في يومنا هذا تتحطم الفرضية بسبب التناقض الداخلي الذي فيها ، وتفسح المجال لظهور النقيض (عكس الفرضية) ، الذي يحاول أن يزيل هذا التناقض . وهــذا أيضاً يتحطم لسبب ما ، وينشأ مُوحّدٌ يضم العناصر الفعّالة من كل من الفرضية ونقيضها. وهذه الصيرورة سائرة في طريقها تعمل عملها في أمريكا وانكلترا

---

(١) Arnold Toynbee ، المصدر السابق ، ص ١٥١ — ١٥٢

وروسيا بل في ألمانيا أيضاً، إذ لا يمكن أن توجد فكرة الانتهاء في نظام هيغل الفلسفي . إن هذا لهو أساس ما جاء بـــه هذا الفيلسوف الكبير . ولكن هيغل نفسه تصوّر ، على صعوبـــة توفيق هذه النظرة مع نظريته ذاتها ، أن دولة بروسيا كانت قد بلغت الكمال حقاً بحيث لم تكن أية ثورة تالية تستطيع أن تأتي بغير المصائب في أعقابها . ولقد يمكن القول أن الحقيقة قـــد تم الوصول إليها آخر الأمر هناك في ألمانيا في أية فـــترة ، وأن الخط المتموج قد بلغ قمته .

إننا لنجد عند هيغل محاولة لإعـــادة الثقة في العقل ، تلك الثقة التي كان (كانت Kant) قد زعزعها ، وهـــذا هو سبب إدعائه بأن العقل وحده يوجه العالم. وهو يعتقد أن العقل فِكرٌ يُكيّفُ نفسه بحرية تامة . وهو يكره من أعماق قلبه كل ما هو مخالف للعقل والمنطق ويقول : إن الصيرورة الكونية كلها تسير وفق مبدأ عقلي . وهـــــذا هو الذي جعل هيغل يقول قولته المشهورة : « إن كل ما كان معقولاً فهو حقيقي ، وكل ما كان حقيقياً فهو معقول » . وكان يعني بهـــــذا إن الأنظمة الإجتماعية الموجودة وأشكال الحكم التي لا يقررها سوى تطور (الروح المطلقة) هي أيضاً خطوات في حركة العقل، وهنا يضع هيغل مبدأه الديالكتيكي المثالي، لذا فإن تطور العقل هو تطور الحقيقة . وهكذا فكل شيء ، سواء كان خيراً أو شراً ، له ما يسوّغه ، لأنه منطقي معقول . يقول (بندیدیتو كروجي) في معرض

تعليقه على هذه الناحية من فلسفته : «إن فكرة هيغل عن الحياة كانت فلسفية بحيث أن النزعتين المحافظة والثورية ، كل في دورها ، تجد فيها ما يسوّغها . وفي هذه النقطة يتفق إنجلز الإشتراكي والمؤرخ المحافظ ترايتسشه Treitzsche لأن كليهما يرى أن تماثل المعقول والحقيقي يمكن أن يدعى إليه بصورة متساوية في كل الآراء السياسية والأحزاب التي يختلف بعضها عن بعض ، لا من ناحية هذه الصيغة المشتركة ، بل في تعيين ما هو المعقول والحقيقي وما هو غير المعقول وغير الحقيقي . وفي كل مناسبة يُعِدُّ ذلك الحزب السياسي العدة لشن حرب على نظام أو طبقة من طبقات المجتمع ، فإنه يدعي أن خصمه مخالف للمعقول أي أنه ليس له وجود ملموس وحقيقي ، ويكون بهذا الإدعاء قد وضع نفسه مع الفلسفة في خط واحد »[1] .

وواضح أن هذه النظرة فضلاً عن أنها تسند كل فجور واضطهاد فهي كذلك تساند أي نوع من أنواع الهيجان . وإذا سلمنا بأن المعقول حقيقي ، فحينئذٍ إذا تبين أن الحقيقي غير معقول وغدا لا يتجاوب مع أفكاره ، فذلك برهان نهائي على أنه صار عتيقاً ، ومحكوماً عليه بالفناء وعُرْضَة لأن يتحطم . فكانت الملكية موجودة طوال الفترة التي كانت فيها معقولة ، ولكنها في الوقت الذي أصبحت فيه غير معقولة زالت . لذا

---

(١) Benedetto Croce المصدر السابق ، ص ٦٦ — ٦٧ .

استطاع اليساريون من أتباع هيغل أن يفسروا هـذا الفرض لكي يساندهم في صراعهم مع النظام الملكي والدين. وكانوا يستطيعون أن يظهروا أن المسيحية والدين مخالفان للمعقول ، لذا فيجب أن يزولا ، ولذلك فإن قتالهما أمر لا مفر منه . ولكن المسألة هي: كيف يمكن أن يقرر أن نظاماً ما من أنظمة الحكم معقول أو مخالف للمعقول ؟ والجواب على ذلك هو أن النصر الحربي وحده يقرر ذلك. وهذا ما حدا بالنقاد إلى أن يسموا هيغل « فيلسوف مجلس الحكم السري وحكم طبقة الإداريين للدولة » . وفي هـذا القول شيء كثير من الحقيقة .

ففي هذا النظام الذي يمتزج فيه غـير المحدود والمحدود في شيء واحد، والخير والشر يؤلفان صيرورة واحدة والتاريخ فيه هو عـين حقيقة الفكرة والروح ، لا شيئاً خارجاً عن إطار تطورها التاريخي، في هذا النظام تكون كل حقيقة ، لمجرد كونها حقيقة ، حقيقة للفكرة وتابعة للكل المحسوس الذي لا يتجزأ . لذا فكل التاريخ عنده يصير تاريخاً مقدّساً »[1] .

هذا المبدأ، كما يقول المدّعون بحق، قد صار قاعدة «للمذهب العقلي الحديث » التي تقول : « إن العاطفة هي الباعث ، وحب السلطان هو الدليل الموجّه ، والقوة هي الأداة » . وتعتقد هذه المدرسة أن الخير والسعادة لا يمكن بلوغها بالتنمية الروحية ولا

(١) المصدر نفسه ، ص ٦٩ .

المادية . وإنمـــا « فقط بالتصميم على الحصول على القوة » .. في الكفاح وفي الإنتصار . وإن أي إنسان له شيء يسيرٌ من الذكاء ليستطيع أن يتصور مبلغ عظم الفاجعة التي أحدثتها هذه الفلسفة في العالم . فقــد ضيّقت دائرة التعاطف الإنساني وجعلت قلوب الناس قاسية وذهبت بما كان لبني البشر من إرهاف في الشعور . وأمسى البشر جماعةً من الوحوش لا هَمَّ لهـــا في الحياة إلا تدبير أمور السلطان بأية وسيلة – مشروعة أو غير مشروعة .

إن الصيرورة الديالكتيكية التي جاء بها هيغل قد علمت الناس عبادة القوة . وقــد ساند هو نفسه كل رجل ارتقى عرش السلطان . « حـــين حاول نابليون بحراب جيشه أن يدخل الملاقات البرجوازية إلى ألمانيا ، كان هيغل ، الذي كان في ذلك الوقت يضع أسلوبه الديالكتيكي ، يتجاوب مع الثورة الفرنسية ورحب بدخول جيش نابليون إلى(ينا Jena) باعتباره التجسيد التاريخي لشكل جديد للروح المطلقة . ثم سمى نابليون « الروح المطلقة على جواد أشهب». ولكن بعد عشرين سنة من ذلك حين قوي الحكم الملكي الإقطاعي في ألمانيـــا ، الذي كان على رأسه فريدريك وليم الثالث ،كان هيغل قد فقد أفكاره الثورية وأصبح فيلسوف الدولة في مملكة بروسيا »[1] .

---

(١) A Textbook of Marxist Philosophy, Translated by A. C. Mosley, P. 59

ونريد أن ننظر آخر الأمر في نظريته عن الدولة . نحن نعلم أن هيغل يعتقد بأن الانفصال شيء لا وجود له في عالم الحقيقة . فالعالم ، كما يتصوره ، « ليس مجموعة وحدات صلبة ، ذرات أو أرواحاً ، كل منها قائمة بذاتها تماماً . وعنده إن ما يظهر من استقلال ذاتي للأشياء المحدودة ، إنما هو وهمٌ وخيال . وهو يرى أنه ما من شيء حقيقي تماماً وبصورة نهائية إلا (الكلّ) . وهذه العقيدة أدّت به إلى أن يستنتج أنه لما كانت الدولة تجسيداً للكل فهي الحقيقة الصادقة وفيها وحدها توجد الفكرة الإلهية . وأن الفرد إذا أراد أن يحقق وجوده لم يستطع ذلك إلا حين يكون عضواً من أعضاء الدولة . ولكن في هذه الفكرة شيءٌ كثيرٌ من التناقض . فالمشكلة هي لماذا يجب علينا أن نأخذ الدولة وحدها تجسيداً للكل، ولماذا لا نعد العالم كله وحدة كاملة والدول بمثابة أقسامه ؟ إن ذلك أقرب إلى الحقيقة وأكثر إتفاقاً مع فلسفة هيغل ، لأن (روح العالم) تعرض نفسها في كل أرجاء الأرض وما فيها من سكان . إنها لا تحصر نفسها في حدود بلاد أو دولة ، والعالم كله مسرح لها ، فيه البشر جميعاً ممثلون يؤدون أدوارهم وفقاً لرغبتها. إن هذا التعظيم المفرط للدولة والذي ليس له داع ناتج عن رد فعل شعر به العالم بعد (حركة الإصلاح Reformation) . ولقد أدت فكرة الدولة هذه إلى نتائج خطيرة ، فقد ألقي في أذهان الناس أن يوالوا ويناصروا الدولة بلا قيد ولا شرط سواء كانت هذه الدولة تمثل العدل أو الظلم .

وفضلاً عن ذلك فهـــذه الفكرة عن الدولة ولدت أشد الإتجاهات الفاشية فظاعة في العالم. وقد ظهر من يدعي بكبرياء أن أكثر الدول مدنية أشدها عدواناً. « لم يكونوا يعتقدون أن الرجال يليق بهم شيء غير التدريب على الحرب ، وأمـا النساء فللترفيه عن المقاتلين ، وأما ما سوى ذلك فسخف » (١) .

هذا المذهب الحربي الذي كان ومـا يزال أحب المذاهب إلى كثير من بلدان العالم، نتج عن نظرية هيغل عن الدولة. فالدولة تعتبر قانوناً بذاتها. « إنه يرى فيها العقل المطلق الواثق من نفسه الذي لا يعترف بأية سلطة سوى سلطته ، والذي لا يقر بأيـــة قواعـــد مجردة للخير والشر والعيب والخسّة والاحتيال والخديعة » (٢) . لذا فاللجوء إلى كل أنواع الوسائل ، مهما كانت منافية للأخلاق ، يعد أمراً مشروعاً إذا كان من أجل الدولة . إن الفاشية هي الطفل السياسي الذي أنجبته ديالكتيكية هيغل. يقول دوغلاس اينسلي: « إن أعتبار هيغل للحقيقي والعقلي شيئاً واحداً قد أدى بـــه إلى أن يساند باندفاع عمل الدولة وكل العظماء » (٣) . إن موسوليني ليتحدث عما في قلب هيغل حـين

---

(١) Neitzche .

(٢) Die Absolute Regierung in System der Sittlichkeit

(٣) Benedetto Croce ، المصدر السابق ، ص ١٥ من المقدمـة وص ٣٢ من الكتاب .

يقول : « إن الدولة هي المطلق حين تقارن بكل الأفراد أو الجماعات . إن توسع الأمة عرض جوهري للحيوية ، ونقيضه هو علامة للتردي والانحطاط » .

إن الأبطال المسؤولين عن توسع الدولة معصومون . وكل ما يقومون به صحيح . لذا لا يجوز لأحد أن ينتقدهم . وهؤلاء الأبطال يجب أن يقوموا وحدهم بإملاء إرادتهم لأنهم يستطيعون أن يتصوروا حقيقة عصرهم تصوراً صحيحاً . هذه النظرية عن الدولة قد حثت الناس على اتباع أوامر الحكام اتباعاً أعمى وزعزعت كيان الأخلاق من أساسه .

ولن يكون خارجاً عن الصدد إذا ذكرنا أن هيغل قد غض النظر عن بعض من أهم حقائق التاريخ ، وذلك من أجل أن يبرهن على صحة نظريته الديالكتيكية . فتاريخ العالم الذي وضعه هيغل ذو شكل ثلاثي كما تصوره .. وهو العالم الشرقي ، والعالم الإغريقي الروماني ، والعالم الجرماني . وهذه عنده هي الفرضية والنقيض اللذان يصبحان واقعاً محسوساً لما هو أحسن أو أسوأ في الصيغة ، إنّ الشرق عرف ويعرف أن **شخصاً واحداً فقط حرّ** ، والعالم الإغريقي الروماني أنّ بعض الناس أحرار ، والعالم الجرماني أنّ كل الناس أحرار . لذا فشخصية الأول استبدادية ، والثاني ديمقراطية وارستقراطية ، والثالث ملكية » . وهذا الاستنتاج قد أراد الوصول إليه لغرض مساندة الحكم الملكي في ألمانيا . ولأجل أن يثبت هذا الثلاثي فإنه بمحض هواه غطّى

حقائق كثيرة عن المكان والزمان . « ففي المكان يحذف تماماً القسم الخامس من العالم ، وهو استراليا ، وجزراً أخرى بين آسيا وأمريكا تبدو عنده متأثرة « بالتخلف المادي » وأمريكا ليست عنده إلا ذيلاً للمدنية الأوروبية وهو يرفض أن يراعي في حكمه ، ما كان للمكسيك وبيرو من مدنية قديمة ، لأنها ، مما نعرف عنها ، كانت طبيعية تماماً ومحتماً عليها أن تموت عند اقتراب الروح . أما عن الزمان فهو يدّعي أن التاريخ لا يبدأ إلا حين يوجد المؤرخون ، ومن هنا كانت الكلمة الألمانية Geschichte (أو الكلمة الإيطالية Storia) تعني أن للتاريخ وجهة ذاتية a parte subjecti ووجهة موضوعية a parte object . ربما يكون الناس قد قضوا من الحياة زمناً طويلاً من غير أن يكون لهم دولة ، ولكن هذا ، الذي هو حياة ما قبل التاريخ بالنسبة لهم ، لا علاقة له بالتاريخ . وإشارة إلى هذه الحدود في الزمان والمكان ، كتب هيغل في أحد دفاتره في آخر سنة من حياته : « إن التقسيم الذي قسّم به الإغريقيون تاريخ العالم لا يزال هو نفسه نافذاً »[1] .

---

(١) المصدر نفسه ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

الفكرة المادية عن التاريخ

كل من درسوا كتابات كارل ماركس دراسة شاملة مجمعون على أنه قد أولى اهتماماً كبيراً لتفسيره للتاريخ، الذي أصبح أساساً للماركسية، وأن هذا التفسير قد أثر على نظرة الناس العامة، رجالاً ونساء، وعلى مشاعرهم وعقائدهم فضلاً عن تأثيره على الفكر السياسي للعصر.

إن مختلف المصادر تكشف لنا أن ماركس لم يكن منشيء التفسير الديالكتيكي للتاريخ، وإنما أخذ ماديته من آخرين كثيرين سلكوا السبيل نفسه وصب فلسفته في القالب الذي اقترحه ديالكتيك هيغل [1]. ولكنه وجد أن هيغل واقف على رأسه،

---

(١) إن المادية التاريخية البسيطة يمكن أن ترى كاملة النمو في بحث أعده (هولباخ Holbach) وطبع قبل قرن، وهي أيضاً مدينة بالكثير إلى (سبينوزا Spinoza). وقد أعاد (فويرباخ Feuerbach) تقرير شكل مجدد منها في أيام ماركس نفسه. ويمكن أن ترى النظرة إلى التاريخ الإنساني على أنه دراسة للحرب بين طبقات المجتمع عند (سان سيمون Saint Simon).=

لذا فقد عدّلَ وقفته فأقامه على رجليه . فقد أصرّ هيغل على أن كل ما يحصل من تغير في العالم المادي الحقيقي ، إنمـــا هو مجرد إنعكاس لا إرادي لتقدم وتطور (روح العـالم) ، أما ماركس

= وقد اعتنقها إلى حد بعيد مؤرخون فرنسيون متحررون من معاصريه مثل (تيري Thierry) و(مكنيه Mignet) وكذلك المؤرخ المحافظ؟ كيزو Guizot). أما النظرية العلمية لحتمية حدوث الأزمات الإقتصادية حدوثاً منتظماً ، فربما كان أول من وضعها (سيسموندي Sismondi) . وأما النظرية العلمية لظهور الطبقة الرابعة fourth estate فقد اتخذها دون ريب أوائل الشيوعيين ، ودعا إليها في ألمانيا في أيام ماركس كل من (فورن شتاين Von Stein) و (هيس Hess) . وأمـا التسلط المطلق للطبقة العاملة (دكتاتورية البروليتاريا) فقد وضع (بابويف Babeuf) خطوطه الكبرى بشكل ظلال ، وذلــك في آخر عقود القرن الثامن عشر ، ووضع هذه الفكرة بشكل واضح في القرن التاسع عشر وبإشكال مختلفة كل من (فايتلنغ Weitling) و (بـلانـكي Blanqui) . وقد زاد في إيضاح المركز الحاضر والمستقبل للعمال وأهميتهم في الدولة الصناعية (لوي بلون Louis Blanc) واشتراكيو الدولة الفرنسيون بشكل أكثر تـكاملاً ممـــا يوافق ماركس على إقراره . إن نظرية القيمة المبنية على العمل تستمد من (لوك Locke) و(آدم سمث Adam Smith) والإقتصاديين القدامى المحافظين (الكلاسيكيين) ونظريـــة الاستغلال وقيمة الفائض (Theory of exploitation and surplus value) ومعالجتها بسيطرة الدولة سيطرة مباشرة يمكن أن ترى في كل من (فورييه Fourier) وفي كتابات الاشتراكيين الأوائل مثل (بري Bray) و (تومبسن Thompson) و (هوجسكن Holdgskin).

(نقلاً عن كتاب: Karl Marx and His Life Environments by Isaih - Berlin pp. 14 - 15) كارل ماركس وبيئات حياتـــه ، لايسايه برلين ص ١٤ – ١٥) .

فقد أكد حقيقة العــالم الخارجي وبيّن أن المثل العليا والأفكار عند بني الإنسان ، إنما هي نفسها نتاج البيئة الإقتصادية المادية وما يحصل فيها من تغير. لذا فليس لها وجود مستقل خاص بها. وإن صراع المتناقضات لا يحصل في عالم الأفكار كما أدعى هيغل وإنما في عالم أحوال الناس الواقعي بواسطة ما يحصل في الكيان الإقتصادي للمجتمع من تغير .

وقــد رأى ماركس كثيراً من الأخطاء في نظام هيغل ، كما بيّن ماركس نفسه في فقرة مشهورة من مقدمته للجزء الأول من كتاب (رأس المال) إذ قال : « إن أسلوبي الديالكتيكي ليس مجرد أسلوب مخالف لأسلوب هيغل وإنما هو عكسه تماماً ، لأن عملية التفكير عند هيغل هي خالقة العالم الحقيقي ، والعــــالم الحقيقي ليس إلا الشكل الخارجي الذي تتخذه الفكرة ، أما أنا فأرى أن الفكرة ما هي إلا العالم المادي بعد أن يعكسه ذهن الإنسان ويصوغه في شكل افكار »[1] .

وهو يبدأ في كتابه هذا بأن يسأل هذا السؤال: ما هو المبدأ الذي يحكم كل العلاقات بين البشر ؟ ويجيب على ذلك بأنه الهدف المشترك الذي يسعى كل الناس لبلوغه ، وهو إنتاج الوسائل التي

---

(١) يقول في رسالة إلى (كوكلمان Kuqelmann) عام ١٨٦٨ : « إن ديالكتيكية هيغل هي الشكل الأساسي للديالكتيكيات، ولكن تجريدها من شكلها المبهم Mystical Form هو بالضبط الشيء الذي يميز أسلوبي .

يديمون بها حياتهم ، وبعد الإنتاج تبادلُ الأشياء التي أنتجوها ، فإن على الإنسان أن يعيش ثم يستطيع أن يبدأ بالتفكير . لذا فإن الأمر النهائي الذي يقرر التغير الإجتماعي يمكن أن يوجد لا في أفكاره عن الحقيقة الأبدية والعدالة الإجتماعية ، وإنما في ما يحصل من تغير في أسلوب الإنتاج والتبادل . وإذا تركنا جانباً ما لا ضرورة له من تفصيلات الفكرة الماركسية عن التاريخ ولم ننظر إلا إلى الجوانب المهمة في هـــذه المشكلة وجدنا الفروض الرئيسة التالية :

١ — يدخل الناس في غمرة الإنتاج الإقتصادي الإجتماعي في بعض العلاقـــات ويضطرون دون إرادتهم إلى أن يكوّنوا بعض الظروف. وإن ظروف الإنتاج هذه تتفق مع مرحلة معينة من تطور القوى المادية .

٢ — إن ظروف الإنتاج إذا أخذت ككل، تكوّن الكيان الإقتصادي للمجتمع . وهذه هي القاعدة المادية التي يقام عليها بنيان القوانين والأنظمة السياسية والتي إليهـــا يرجع بعض أشكال الوعي السياسي .

٣ — ليس وعي الإنسان هو الذي يعين أشكال الوجود، بل أشكال الحياة الإقتصادية والإجتماعية هي التي تعين الوعي .

٤ — بعـــد أن تبلغ قوى الإنتاج المادية مرحلة معينة من التطور تصطدم مع ظروف الإنتاج الموجودة ، أي مـــع نظام

الإنتاج الذي تعمل في ظله .

٥ — إن تاريخ المجتمع منذ وجد حتى الآن هو تاريخ صراع طبقات : حر وعبد ، نبيل وعامي ، سيد وخادم ، رب عمل وصانع ، وبكلمة واحدة ظالم ومظلوم .. كلهم وقفوا موقف المعارضة الدائمة بعضهم لبعض ، وقاموا بحرب لا انقطاع لها ، تختفي عن الأنظار حيناً وتظهر حيناً آخر : حرب كانت تنتهي إما بإعادة بناء المجتمع كلياً بشكل ثوري ، أو بتدمير الطبقات المتصارعة جميعاً .

هذه إذن هي الفكرة الماركسية عن التاريخ التي ادعى إنجلز ، بجانب قبر ماركس ، أنها أمدت علم العلاقات الإجتماعية بالشيء الكثير . « مثلما اكتشف داروين قانون التطور في الطبيعة العضوية اكتشف ماركس قانون التطور في تاريخ البشر . لقد اكتشف الحقيقة البسيطة التي ظلت حتى الآن مغطاة بما نبت فوقها من العقائد .. وهذه الحقيقة هي أن الإنسان يجب أولاً أن يأكل ويشرب ويتخذ مسكناً ولباساً قبل أن يستطيع أن يبحث عن سياسة أو دين أو علم أو فن وما سواها . لذا فإن إنتاج وسائل المعيشة المادية ، وما يتبع ذلك من درجة التطور الإقتصادي التي يحصل عليها بعض الناس أو تكون في حقبة ما ، كلاهما يكونان الأساس الذي تنمو عليه الدولة والأنظمة والأفكار القانونية والفن وحتى الأفكار الدينية لهؤلاء الناس ، والذي يجب أن تفسر هذه الأشياء على هداه لا أن يفسر هو على هدى هذه الأشياء كما

كان يحصل حتى الآن »[1] .

إنه لمن سوء حظ البشر أن ظهر ماركس في أفق العالم في عصر كان ينظر فيـه إلى الثروة المادية وامتلاكها على أنها الهدف الوحيد في الحياة. فقد كانت المسيحية تكاد تكون قد استنفدت ما فيها من قوة . وكانت القوة الهائلة والسيطرة على الموارد المادية التي وضعها التقدم العلمي تحت تصرف الإنسان قد جعلتاه يفكر أنه ليس وراء المادة شيء . وكان ينظر حتى إلى غرائز الإنسان ومشاعره وعواطفه وضميره على أنها منتجات ثانوية لها. ولم يكن من اختلاف جوهري بـين الإنسان والحيوان غير أن الإنسان يستطيع أن يتكلم والحيوان لا يستطيع . والأول قـد نتج عن الثاني بعملية التطور . وحياة الإنسان خاضعة تماماً لقوانين العالم المادي التي لا سبيل إلى تغييرها .

هـذا التغير في النظرة بعيد المدى من حيث نتائجه . فوجّه الذم بصراحة إلى كل الفلسفات التي كانت تتحدث عن الإنسان على أنـه صاحب (إرادة حرة) ونُظِرَ إليها نظرة إحتقار باعتبارها من مخلفات الماضي لا غير . وأصبحت أساليب التفكير ذات القوانين الدقيقة التي تشبه قوانين العلوم الطبيعية التي تحكم الظواهر الطبيعية مقبولة لدى الناس . وأبعِدَت أفكار الأخلاق والضمير إلى حيث لا سبيل إلى رؤيتها. ولم يكن من الظواهر ما

---

(١) Karl Marx , Selected Works . Vol. I. P. 19

يستحق الاهتمام إلا ما كان ظاهراً للحواس .

هذه هي أسس الفكرة المادية عن التاريخ . وقــد أغرى ماركس بها ما كان للعلوم الطبيعية من بريق خارجي . ولما كان هو نفسه يتصور أن الإنسان مجرد آلة ، فقــد حاول أن يصوغ القوانين الإجتماعية على غرار طبيعة القوانين الطبيعية . ولا شك في أنه من أجل بلوغ هــذه الغاية حرّف الحقائق . لقد كان في ذهنه هدف واحد فوق كل شيء وهو أن يبرهن بطريقة مــا على أن أسلوب الإنتاج في الحياة المادية هو الذي يعين الطابع العــام لطرق الحيــاة الإجتماعية والسياسية والروحية . إن (إنسانه) مجرد تماماً من حرية الإرادة.والباعث الوحيد لأعماله هو الحصول على وسائــل الراحة المادية . وإن الطريق لتحقيقها هو القاعدة الحقيقية التي عليها يرتفع صرح حياته الفردية والجماعية . وحين تتغير هذه القاعدة يحصل تغير كامــل في البناء المقام عليها . لذا فإن وسائل الإنتاج هي الحكمُ الفصلُ الحقيقي الذي يقرر مصير البشر. والنتيجة الطبيعية لهذا إننا سنكون ملزمين بأن نقر بأن (الجماعــة) وحدها هي الحقيقة وأن الوجود المستقبل للأفراد مُجرّدُوهم . إن كرامة الإنسان خداع محض، وكل من يفخر بأن يدعو نفسه حراً وإنساناً ذا تفكير قويم إنمــا يرزح تحت وطأة أفكار خاطئة أشد الخطأ ، فما هم إلا « حشد من مخلوقات آلية لا إرادة لها » .

وواضح إن هــذه النظرة للحياة الإنسانية لا تنصف الفرد

حق الأنصاف ومشحونة بعيوب خطيرة .

« إن الرابط بين التغير الاجتماعي وعملية التطور الإقتصادي أقل بكثير تأثيراً وبساطة وكفاية مما يقرره علم النفس الماركسي. إن علم النفس الذي يفتقر إلى الكفاءة ربما هو الضعف القتّال للحتمية كلها . فقد زعم ماركس أن الإنسان يستجيب للتغيرات التي ُتدخلُ في نظام الإنتاج ... أما كيف تدخل فهو لا يقول لنا لأنه يتكلم كما لو كان الأسلوب الفني المتغير في الإنتاج هو نفسه يشرح نفسه وهو السبب الأول في صيرورة هي ، ببساطة ، صيرورة محتومة . إنه يتجاهل تعقيدات التعود من جهة والنفور من جهة أخرى . إنه يبسط النظرات التي تتجمع حول الأنظمة ، فالتماسك والإخلاص بالنسبة للعائلة والمهنة والأمة كلها خاضعة للطبقة الإقتصادية ... ما يحتمه الإقتصاد ، أي بكلمات أخرى لا تحل المشاكل الكبرى للثورات الإجتماعية . وإن الحل الذي استهدفته هـــذه المحاولة يستبعد تأثير عوامل أخرى كثيرة جداً »[1] .

ونريد الآن أن نـــأتي إلى فلسفة ماركس نفسها . فالسؤال الأول الذي يرد إلى الذهن هو : ما هي قوى الإنتاج ؟ كيف تأتي إلى هـــذا الوجود ؟ أهي حقاً العوامل الأولية في تطور الإنسان ؟ « إن قوى الإنتاج هي القوى التي يستخدمها الإنسان

---

(١) Maclver ، المصدر السابق ، ص ٥٦٢ – ٥٦٣ .

في الإنتاج الإقتصادي ، من صفات الخصب في التربة والخواص التي تتميز بهـا المعادن والقوى الآلية والكيمياوية في الطبيعة وحرارة الشمس وقوة البخار والكهرباء وكذلك قوى الحيوانات والإنسان نفسه » ولا يستطيع أحد أن ينكر أن هذه القوى وجـدت منذ وقت غير معروف ، قبل أن يبزغ فجر المدنية بكثير . ومع تقدم الزمن اتسع عقل الإنسان فاكتشف هـذه القوى الكامنة في أعماق الطبيعة ، وأزاح الحجاب عنها وسخرها لفائدته. وتاريخ الإنسان حافل بالشواهد ، على أن ذكاء الإنسان كان العامل الأول في اكتشاف هذه القوى « ولو لم يكن الأمر كذلك ، لو لم تكن حاجـة إلى الذكاء لاكتشاف قوى الطبيعة واستخدامها لاكتشفتها الحيوانات أيضاً واستخدمتها. ولأنشأت الأجناس الدنيا مدنيات بالسرعة التي تنشئها بهـا الأجناس العليا » [1] .

ولنفرض أن المصادفات كشفت للإنسان عن كثير من قوى الطبيعة المخفية . فإذا كان هذا هو الأمر فعلينا أن نقر بأن عدداً غير قليل من الاكتشافات يجب أن يكون من نصيب الحيوانات. ويجب أن تكون الحيوانات الدنيا قد أتت بالكثير من المخترعات المدهشة ، لأن المصادفات يجب أن تكون قد صحبتهم هم أيضاً.

ولكن التاريخ لا يدعم هـذا القول . فلم يكن للحيوان

---

(١) Karl Federn , The Materialist Conception of History , P. 8

اختراع مـــا لأنه ينقصه موهبة التفكير البنّاء التي هي أمر ضروري جداً للاستفادة منه فائدة طيبة. ثم إن هذه الاكتشافات لم يتوصل إليها كل مخلوق ذي عقل ، ولم يحظ باكتشاف الأشياء الجديدة ووضع القوانين الجديدة وإزاحة الأستار عـــن المواد الجديدة المكنوزة في طبقات الأرض أو في الفضاء إلا ذوو الذكاء الخارق من بني الإنسان. « ملايين الأغصان نمت على الأشجار أو كانت ممددة على الأرض يمكن أن تقوم بعمل المتلات أو تكون سياجات ، وكانت في الأرض أحجار حـــادة كثيرة يمكن أن تتخذ سكاكين أو فؤوساً، والبخار ظلّ يرفع غطاء إبريق صنع الشاي مائة ألف مرة، ومع ذلك لم يصبح الاكتشاف ممكناً حتى جـــاء رجل ذو ذكاء كاف وعزم على أن يستفيد من الغصن أو الحجر ، ورجل موهوب فرأى أن البخار الذي كان يرفع غطاء إبريق صنع الشاي يمكن أن يفيد في أغراض أعظم بكثير»[1].

هذه الحقائق يمكن أن تتضاعف إلى أي عدد ، وهي كلها تنكر ادعاء كارل ماركس أن تطور قوى الإنتاج يقرر كيان المجتمع الإجتماعي والسياسي ، خلافاً لما يكشفه التاريخ من أن عقل الإنسان هو الذي يكتشف وينمّي قوى الإنتاج واحدة بعد أخرى .

ولو أن ماركس اكتفى بأن يقرر أن أساليب الإنتاج قـــد

---

(١) المصدر نفسه ص ١٠ .

أثرت في الحياة الاجتماعية أو السياسية لأية أمة لما عارضه أحد . ولكنه توسع في هذا الإدعاء إلى حد الإسراف. فأعلن بإصرار أن أسلوب الإنتاج هو القالب الذي بموجبه تنمو أنظمة الأمة، وأنه الأساس الذي عليه يرتفع صرح الحياة السياسية والاجتماعية لأية أمة ، وأن وعي الأمة لا يقرر أشكال وجودها ، وإنما أشكال الحياة الاجتماعية هي التي تعين وعيها . إنـه يقول : « إن مجموع علاقات الإنتاج هذه يكوّن الهيكل الاقتصادي للمجتمع — وهو الأساس الحقيقي الذي يقـام عليه الكيان القانوني والسياسي والذي ترجع إليـه أشكال معينة من الوعي الاجتماعي . إن أسلوب الإنتاج للحياة المادية يقرر مجرى الحيـاة الاجتماعي والسياسي والعقلي كله . وإن وعي الإنسان ليس هو الذي يقرر حالة وجوده ، وإنما حالته الاجتماعية هي التي تقرر وعيه » .

والشيء المنطقي الذي يتبع هذا هو أن أسلوب الإنتاج هو العامـل الحاسم في حياة الفرد أو المجتمع . لذا فالأشخاص أو المجتمعات التي تواجـه مشاكل اجتماعية من نوع واحد يجب أن تتصرف بشكل واحد . ولكن هذا غير حقيقي، فالرجل الذي يواجه فقراً مدقعاً يستطيع أن يسلك إحدى سبل كثيرة . فهو قد ينهي حياته بطلقة من مسدس ، وقد يجنح إلى السرقة ، أو يتخـذ سبيل الاستجداء ، أو ينضم إلى حزب سياسي ويضحي بكل ما لديه في سبيل الواجب نحو إخوته من البشر . أمـا أي هذه السبل يسلك وأيها يرفض فأمر يعتمد على تكوينه الفكري

وميوله الشخصية وتربيته ، وتساعده في اتخـاذ قراره عوامل لا حصر لها . إنه دون ريب واقع تحت تأثير الوضع الاقتصادي ، ولكن الوضع الاقتصادي لا يقرر حياته. وشبيه بذلك الجماعات والأمم. كانت ولايات الإغريق في ما بين ٧٢٣ و٣٢٥ قبل الميلاد تجابه مشكلة زيادة السكان ، فحين ازداد ضغط هـــذه المشكلة زيادة بالغة قامت الولايات المختلفة بحلها حلولاً مختلفة ، « فبعضها مثل كورنثوس [١] وخالكيس [٢] تخلصت من زيادة السكان بأن اغتصبت واستعمرت أقاليم زراعية في الخارج وراء البحر ، في صقلية ، وجنوب إيطاليا ، وتراقيا وأماكن أخرى . ولما كانت هذه المستعمرات الإغريقية قد أنشئت بهذا الشكل ، فقد وسّعت البقعة الجغرافية للمجتمع اليوناني دون أن تغير شخصيته. ولكن ولايات أخرى اتخذت حلولاً نتج عنها تغيير في طريقة حياتها .

فاسبارطة أوجدت لأبنائها الأرض بأن هاجمت أقرب جيرانها من الإغريق واحتلت أراضيهم . وكانت النتيجة أن حصلت اسبارطة على ما كانت تريـده من الأراضي الجديدة ، ولكن ثمن ذلك كان حروباً متكررة لا تنتهي مع شعوب مجاورة . ولأجل معالجة هذا الموقف اضطر رجال الحكم في اسبارطة إلى أن يجعلوا

---

(١) Corinth .

(٢) Chalcis .

حياة اسبارطة حياة عسكرية من رأسها إلى قدمها، وذلك بإعادة القوة إلى أنظمة اجتماعية بدائية مألوفة عند عـدد من المجتمعات الإغريقية ، واستخدامها ، وذلك في الوقت الذي أصبحت فيه هذه الأنظمة في اسبارطة وغيرها على وشك الزوال .

« أمـا أثينا فقد عالجت مشكلة السكان بطريقة أخرى . فقد وقفت إنتاجها الزراعي للتصدير، وبدأت الإنتاج، ثم طورت أنظمتها السياسية بحيث تعطى حصة عـادلة من القوة السياسية للطبقات الجديدة التي أوجدها هذا التجديد الاقتصادي. وبتعبير آخر ، تفادى رجال الحكم في أثينا من ثورة اجتماعية بأن قاموا بثورة اقتصادية وسياسية . وإذ اكتشفوا هـذا الحل للمشكلة العامة بمقدار ما كان لهـا من أثر عليهم هم أنفسهم فإنهم فتحوا مصادفة طريقاً جديداً لتقدم المجتمع اليوناني كله »[١] .

يتضح من هذا المثال أن أمماً مختلفة تعيش في ظروف اقتصادية متماثلة ولها أساليب إنتاج متماثلة اتخذت طرقاً مختلفة وفقاً لمشيئتها. لذا فالقول بـأن الوضع الاقتصادي أو أسلوب الإنتاج يقرر كل أشكال نشاط الإنسان خطأ . إن الطريق الذي تختاره أمة ما يعتمد على عوامـل عديدة هي : النمو العقلي الذي نمته ، والمنهج الأخلاقي الذي تنهجه ، والبيئة الجغرافية ، والتأثير العنصري .

---

(١) Arnold Toynbee , A Study of History , abridyed by D. C. Somervell , P. 4

إن سجل التاريخ حافل بالأمثلة التي تناقض النظرية الماركسية . فلقد كان حب الوطن أو الأمة أو الانتساب إلى دين ما أقوى بكثير من الباعث الاقتصادي المجرد . كتب بروفيسور أليكساندر غرى ملاحظة مهمة جداً هي: «لا ينكر إلا القليلون أن التاريخ إذا أريد له أن يكون شاملاً يجب أن يسجل في صفحاته كل شيء عن مخزن حفظ الأطعمة في المطبخ ، ولكن في التاريخ أيضاً شيئاً كثيراً غير العامل الاقتصادي . فالإنسان لا يقصر حياته على أن يحبو على بطنه ، فكم في الحماس والولاء والإيحاء والإلهام من حوافز الإنسان على العمل وهي ليست اقتصادية قط ، ولكنها في الوقت نفسه تؤثر على الظروف الاقتصادية . وفوق كل ذلك ، فإن تأثير الذهن على الذهن مع نتائج هذا التأثير البعيدة ، وهو من أعظم أنواع التأثير في العالم، يستعصي على التفسير الاقتصادي . ولو فرضنا أنه قد يمكن أن نفسر كيف جاء دانتي [١] ، ومحمد ، وكالفن [٢] ، وماركس ، ولويد جورج [٣] وجورج روبي [٤] حين جاؤا فعلاً ، فستبقى مسألة أكثر صعوبة بكثير وهي أن نفسر كيف أو لماذا جاؤوا

(١) Dante .

(٢) Calvin .

(٣) Lloyd George .

(٤) George Robey .

في الأصل ولماذا لم يبقوا في عـالم العدم . والأمر الذي يزيد على هذا صعوبة هو أن نفسر كيف يجـد الرجل العظيم جماعته الذين ينطقون بلسانه ، والذين قد ينقلون تأثيره هنا وهناك في أجزاء مختلفة من العالم ، إذ أن كالفن كان يمكن ألا يجد نوكس [1] ، وماركس كان يمكن ألا يكون له لينين. إن الأصوب عند تفسير التاريخ أن يتواضع المرء،وربما أن يعتقد بعدم كفاية عقله لإدراك الغيبيات ، ذلك أنه يدرك أن تاريخ الإنسان إنما تكونه عوامل كثيرة ، ليس الاقتصاد إلا عاملاً واحداً منها ولعله ليس أعظمها شأناً » [2] . فالصراع من أجل الحصول على وسائل الحياة هو ، دون ريب ، اللون الذي تتميز بـه حياة أغلب البشر ، ولكن ذلك لا يجعلنا نزعم أنـــه هو العامل المهم الوحيد في كل مجموعة المؤثرات المتفاعل بعضها مع بعض والتي تعين الظواهر الاجتماعية. وكما « أننا لا نستطيع أن نقول : بمـا أن الرسام يعتمد تماماً على صندوق ألوانه ، فـــإن طبيعة ما في الصندوق تفسر الصورة ، كذلك لا نستطيع أن نقول : إن كفاح الفنان من أجل الحصول على معاشه يفسرها أنه سيكون حقاً استنتاجاً كبيراً أن نستنتج أن الوسائل التي نستخدمها توضح تماماً الغايات التي تستخدم من أجلها هذه الوسائل ، وهو استنتاج يحتاج فيه المرء إلى براهين لا

---

(١) Knox .

(٢) Alexander Gray , The Development of Economic Doctrine P. 307 .

يقدمها لنا ماركس، [١] إن الفنان لا شك يستمد هيكل صورته من العالم الخارجي، إلا أن الشيء الذي يضفي على الصورة سحراً وأصالة هو الروح التي تنفخها عبقرية فكره في ذلك الهيكل. فشيكسپير مثلاً استقى المادة التاريخية للمسرحيات الرومانية الثلاث: يوليوس قيصر، وأنتوني وكليوبترا، وكوريو ليناس من ترجمة سير توماس نورث[٢] لنسخة الأسقف آميو[٣] الفرنسية من كتاب (تاريخ حياة رجال) لپلوتارك[٤]، ولكن الشيء الذي أعطى هذه القصص حياة هو العرض العبقري الذي عرضها بـه شيكسبير والذي كساها بثوب نفيس من الشعر وجعل أشخاصها على اختلافهم، رجالاً ونساء، يبدون أحياء. وما من أحد يستطيع أن يقول أن شيكسبير كتب تلك المسرحيات لأنه استمد المادة من پلوتارك. إذ لو كانت قراءة هذا الكتاب وحدها كافية لكتابة هذا النوع الراقي من المسرحيات، لاستطاع كثيرون غيره أن ينالوا ما ناله من حظ عظيم. ولكننا نجد أن عبقرية شيكسبير التي لا تضاهى هي وحدها التي أكسبته هذا المقام الفريد في تاريخ الأدب المسرحي. فالجمال الحقيقي في

---

(١) MacIver المصدر السابق، ص ٥٦٤.

(٢) Sir Thomas North

(٣) Bishop Amyot

(٤) Plutarch's Lives

مسرحياته ليس في القصة ، وإنما في طريقة بناء المشكلة[1] ، وهو من أجل بلوغ هذا القصد ينتخب بدقة أهم التفاصيل ويبعد كل ما ليس له أثر في تكوين الانطباع الكلي. وهكذا نرى أن ذكاء شيكسبير هو الذي صور طينة مادة مسرحياته أرواحاً حية ، وموهبته العقلية هي التي حولت المعدن الرخيص ذهباً خالصاً.

وكذلك الأمر في عالم الأحياء. إننا نتأثر بالبيئة المادية التي نعيش فيها ، إلا أن فكرنا هو الذي يعلمنا أن نغير هذه البيئة المادية لكي تلائم أغراضنا المختلفة. إن العالم المادي لا يقرر وعينا وإنما وعينا هو الذي يقرر الوجه الذي سنستخدم فيه مواردنا المادية . فكل شيء يجب أن يكون موجوداً في الفكر قبل أن يمكن وجوده في العمل . لذا فقوى الإنتاج لا تصنع نفسها ، وإنما يصنعها عقل الإنسان. فبالرغم من أن الإنسان يتأثر بالحياة المادية المحيطة به ، لا يمكن اعتباره مجرد عجينه لا شكل لها تصب في قوالب البيئات المادية ، إذ أنه يستطيع أن يغير بيئته.

إن كارل فيدرن يلاحظ ملاحظة بارعة فيقول : « إن قوى الإنتاج وظروف الإنتاج تؤثر دائماً على بعضها ويقرر بعضها بعضاً . . كما أن اختراع أسلحة جديدة يؤثر في الحروب ويحدد نتيجتها ، والحروب تؤدي دائماً إلى اختراع أسلحة جديدة

---

(١) Plot

وأشكال جديدة من التنظيم العسكري ، ومع ذلك فلن يزعم إلا مخبول أن تطور الأسلحة وتنظيم الجيش هو سبب الحرب والعامل الأساسي في التاريخ العسكري »[1] .

إن ادعاء ماركس بشأن الفكرة المادية عن التاريخ خاطىء إلى درجة أن إنجلز[2] ، وهو أوثق تلاميذ ماركس ، شعر بضعفها وقلل من حدة تعبيرها الجازم بقوله : إن الفكرة المادية عن التاريخ تقول : إن عامل التقرير في التاريخ هو في النهاية الإنتاج وإعادة الإنتاج في الحياة الواقعية ، وما ادعى ماركس ولا ادعيت أنا أكثر من هذا . لذا فإن حرّفَ شخص ما هذا القول إلى الادعاء بأن العامل الاقتصادي هو وحده المقرر فإنه يحوله إلى كلام لا معنى له ولا علاقة له بالواقع وغير معقول . إن الوضع الاقتصادي هو الأساس ، ولكن العناصر المتعددة للبنيان الذي يشاد عليه ، والأشكال السياسية للصراع الطبقي ونتائجه ، والنظام الذي تقيمه الطبقة المنتصرة بعد انتصارها في المعركة ، وما سوى ذلك ، وأشكال القانون ، وبعد ذلك حتى انعكاسات كل هذه المعارك الحقيقية في أذهان المتحاربين ، والنظريات السياسية والقانونية والفلسفية والأفكار الدينية وما أصابها من نمو مع أنظمة المذاهب والعقائد ، كل ذلك يؤثر أيضاً على مجرى

---

(١) Karl Federn المصدر السابق ص ٢٢ .

(٢) Engels

الكفـاح التاريخي .. وفي كثير من الأحوال يكون له الغلبة في تعيين شكلها . إن هذه العوامل يعمل بعضها في بعض، وفي عملها هذا فإنهـــا — وسط حشود الحوادث جميعاً — تؤكد الحركة الاقتصادية على أنها ضرورية »[1] .

إن قراءة دقيقة للفقرة التي أوردناها آنفاً كفيلة بأن تكشف لنا أن الموقف الذي وقفه أنجلز يختلف عن موقف أستاذه . فهو يخبرنا بأنه بالرغم من أن العامل الاقتصادي ضروري ، فـــإن عناصر أخرى متعددة تدخـــل أيضاً في عملية تكوين الأشكال الاجتماعية . بيد أن دعوى ماركس تختلف عن هذا ، فهو يعتقد بأن الوضع الاقتصادي يقرر طبيعة العوامل الأخرى التي تدخل في تكوين المجتمع . لذا فـإن ماركس يعتبر كل جوانب الحياة الإنسانية أموراً ثانوية تنتج عن الحاجات الاقتصادية ، أما إنجلز فيعتقد أن أهم العناصر المختلفة كلها هو الحاجة الاقتصادية . إن بين هاتين النظريتين إختلافاً هائلاً .

من حسن حظ البشرية أن أخطاء الماركسية تنجلي الآن أكثر فأكثر بمرور الزمن . فقد رفض نظرته المادية للتاريخ حتى أشد الناس احتراماً له . خذ مثلاً بروفيسور ج. د. هـ. كول[2] فإنه يرفض أن يعترف بالعامل الاقتصادي على أنه العامل الوحيد

---

(١) Karl Marx المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣٢١ .

(٢) Professor G. D. H. Cole

الذي يقرر الكيان الاجتماعي لأية أمة ، ويقول في كتابه (معنى الماركسية) : « من السهل أن نتتبع التشابه الكبير بين الهياكل الاقتصادية التي تبنى عليهـــا أنواع المجتمعات المختلفة وتنظيمها السياسي وأجهزتها الاجتماعية ، وأن نرى كيف كُيّفت الهياكل السياسية والاجتماعية في الماضي وفقـاً لتغير الظروف الاقتصادية الأساسية . إلا أن التأكيد على هذا إلى حـد مفرط في البعد أمر خطير . فليس حتماً أن تكون المجتمعات التي في مستوى واحد من حيث أسلوب الإنتاج متماثلة في الأنظمة أو الأشكال الاجتماعية للعائـلة والعلاقات الجماعية ، والمنظمات السياسية والدينية ، أو الأفكار الخاصة بالقيم والأخلاق . فلقد أظهرت بحوث عـــلم الإنسان [١] أشكالاً حضارية مختلفة جداً ، لا يمكن قط أن تفسر تفسيراً اقتصادياً محضاً . إن أقصى ما يثبته هـذا التشابه الذي تبين لنا وجوده ، إنما هو مجرّد الاقتناع بأن الأنظمة الاجتماعية تتأثر بالظروف الاقتصادية – لا أنها تتعين بهـا وحدها . إن الأساس الاقتصادي للمجتمع عامل واحد فقط من عوامل تصوير الشكل العام للحضارة ، حتى ولو كان أهم عامل [٢] .

ما أشد اختلاف هذا عما قاله ماركس ! فقد قال ماركس : « يجب أن لا نبحث عن الأسباب النهائية لكل تغيـير اجتماعي

---

(١) Anthropology

(٢) Professor G. D. H. Cole , The Meaning of Marxism, P. 57

وثورة سياسية تحصل في عقول الناس في النظرة الخيّرة العميقة في الحقيقة والعدالة الأزليتين ، بــل يجب أن نبحث عنها في التغير الذي يحصل في أساليب الإنتاج وحدها » . لذا فـإن ما يراه ماركس هو أن الاقتصاد وحده يـدنا بسبب التغير . وبناء عليه فالفن والدين والقانون وما سوى ذلك لا وزن لها في صياغة الظروف الاقتصادية ، بل هي نفسها نتيجة هــذه الظروف . ويعترف بروفيسور (كول) بتأثير عوامـل أخرى كثيرة فضلاً عن عامل الاقتصاد .

يرى ماركس أن كل الجوانب المختلفة من حياة البشر ، إنما تصوغها الظروف الاقتصادية التي تكتنف حقبة مـا ، وبذلك فهي مدينة بوجودها تماماً إلى العوامل الاقتصادية . غــير أن (كول) يعتقد أن العوامــل الأخرى مستقلة عن الظروف الاقتصادية . إنه لمن دواعي الثناء على ماركس أنه بفضل مهارته استفاد من الألفاظ والعبارات ذات المعاني المتعددة التي يمكن أن تفسر بأية طريقة وفقاً لضرورات الزمن . ومن هــذه الألفاظ « تطور قوى الإنتاج » . يقول ماركس : « إن ظروف الإنتاج تتفق مع مرحـلة تطور قوى الإنتاج المادية » . فالسؤال الذي يرد في ذهن المرء الآن طبعاً هو : مــا هي اللحظة الحاسمة في التطور ؟ أهي المرحلة الأولى حين يتم اختراع أو اكتشاف ما ، أم الوقت الذي يوضع فيه هـذا الاختراع أو الاكتشاف موضع الاستخدام والاستفادة ويجرب ، أم الوقت الذي تصبح فيــه

فائدته عامة وتأثيره ظاهراً في المجتمع؟ إن كتابات ماركس تبيّن أن الفكرة التي كانت في ذهنه هي أنه الوقت الذي يكون فيه استخدام القوى الجديدة كثيراً جداً والمجتمع قد تأثر بها إلى حد كبير ، إذ أن المرء لا يستطيع أن يتحدث عن التطور الاجتماعي في ذلك الحين . يتفق الماركسيون جميعاً على أن تطوراً ما في ظروف الإنتاج يجب أن يحدث قبل أن يمكن المجيء بقوة إنتاج جديدة من نوع جديد تماماً . من المستحيل أن تجعل أي اختراع جديد كثير الاستعمال وشائعاً دون أن تجمع رأس المال الضروري وتقوم بالتدريب الصحيح وتغيير الأذواق والميول لقبول هذا التغير ، وإلا أخفقت كل الجهود لجعل الاختراع شائعاً. هذه هي السبيل الطبيعية التي تتخذها الاختراعات . وهذا الطريق يمثل تحدياً لنظرية ماركس ، إذ « أنه ليس ظرف الإنتاج هو الذي نجده يعتمد على تطور قوى الإنتاج ، وإنما قوى الإنتاج هي التي يقرها تطور ما في ظروف الإنتاج » ما أشد هذا التحريف للحقيقة !

لقد حرف ماركس كثيراً من الحقائق ، كما فعل هيغل [١] وشپنغلر [٢] ، وتجاهل بعض الحوادث المهمة في التاريخ التي لم تؤيد ما ذهب إليه من أجل أن يجعل نظريته تبدو مستساغة .

---

(١) Hegel

(٢) Spengler

ولأجل أن يثبت أن نظرياته صحيحة استخدم الحوادث التي وقعت في « الأغوار البعيدة من الزمن » مما لا يمكن التحدث عنه بشيء أكيد، ومما يمكن أن يفسره المرء بسهولة أي تفسير يشاء . ثم أنه يصعب ، بل يستحيل، الوصول إلى أية حقيقة على أساس هذه الحوادث التي وقعت قبل التاريخ، فهي مغطاة بحجاب كثيف من الزمن، ولكن ماركس وانجلز بنيا كل بحوثهما عليها. فانتخبا مقداراً لا بأس به من دراسات مورغان [١] عن قبائل إروكوى [٢] وكتاب جورج لودفيغ فون ماورر عن العادات البلدية وعادات الأراضي الزراعية عند قدامى الألمان [٣] . وهذان الكتابان يبحثان كيف كانت الحال في عهد ما قبل التاريخ . إن فيهما مما يدعو إلى التفكير أشياء أكثر من مجرّد الحقائق الجامدة . فكل شيء غامض ومغطى بالضباب . فالمرء يستطيع أن يثبت أي شيء ويبرهن على أي شيء بواسطة المادة المعطاة فيهما . فهي يمكن أن تُحرّفَ بسهولة لأجل الوصول إلى نتائج كانت في الذهن بادىء الأمر . وها نحن نأتي بمثال واحد لنوضح كيف تُحرّفُ الحقائق بشكل فظيع .

مثال مقتبس من ما كتبه كيونو [٤] ، وهو مفسر مشهور

---

(١) Morgan

(٢) Studies of Iroquois

(٣) George Ludwig von Maurer ' s Work on the Municipal and Agrarian Customs of the Ancient Germans.

(٤) Cunow

لنظرية ماركس . إنه يقول : « إن القبائل الرحل والتي تعيش على الصيد تنظر إلى المرأة نظرة احتقار لأن المرأة لا فائدة منها في الصيد وتربية الماشية وغير لائقة بدنيّاً للقتال الذي تكون هذه الشعوب المقاتلة مشتبكة فيه دائماً» . ولكن لما أخذ الشعب بالزراعة وأصبحت الزراعة عملاً مهماً في المجتمع ، ارتفع مركز المرأة أيضاً في ميزان التقدير ، وأخذ الرجال ينظرون إليها من زاوية ناعمـــة لا خشونة فيها ، فأخذوا ينظرون إليها باحترام وتقدير . إن السبب الأكبر لهذا التغير الجذري سبب اقتصادي محض . فبما أن المرأة أصبحت ذات فائدة للناس في نواحٍ عديدة في غرس الأشجار وبـــذر البذور وجني الثمار ، مثلاً ، ارتفعت مكانتها. أيمكن أن يكون شيء ما أكثر غرابة من هذا ؟ إذ أننا أولاً لا يمكننا أن نجزم بـــأن المرأة كانت تحتقر عند كل قبائل العالم . ففي الهند كانت المرأة دائماً موضع احترام كبير . وثانياً إن بين ما هو مسجل لدينا أن شعوباً عديدة كانت رغم كونها زراعية لا تحترم نساءها . وعند الرومان ، وكذلك عند قدامى الألمان ، كان مركزها القانوني ، على الأقل ، مركز العبد [1] . ويستنتج ممـا قرره (كيونو) أنه بما أن المرأة مفيدة في الزراعة فهي تحظى بالاحترام . أي أن الاحترام هو لعملها . ولكن مـا أشد خطأ هذه النتيجة ! لقد أصاب (كارل فيدرن) حين قال :

---

(١) Karl Federn ، المصدر السابق ، ص ٥٤ .

« وحتى لو صرفنا النظر عن كل هذه الحقائق التي تثبت عكس ذلك فإن الفكرة التي تزعم أنه بما أن المرأة قد عملت في الحقول فيجب أن تكون قد نالت الاحترام وأعطيت مركزاً قيادياً في المجتمع ، هي نفسها فكرة غريبة مضحكة . فمتى وأين سجل التاريخ ، أن العمل وحده قد قاد إلى مركز كريم وإلى القوة والسلطة ؟ وحتى في وقتنا هذا ، فإن الكرامة والشرف اللذين يعطيان له محدودان جداً ،فهما موجودان بصورة عامة في الكلمات أكثر من الحقيقة . ففي كل الأوقات كان العمل يفرض على المرأة وعلى الضعفاء ومن لا شأن لهم . لقد كان العمل مفيداً للغاية ، ولكنه لم يكن موضع تكريم . بل كان المكرمون هم الأقوياء الذين يسرقون ما ينتجه العمال . إن الماركسيين يعلمون هذا طبعاً حق العلم ، بل إنهم ليؤكدون عليه تأكيداً شديداً. فكيف إذن يستطيعون أن يزعموا أن العمل الزراعي الذي قامت به المرأة جعلها تنال السلطة والقوة؟ إنهم لا يستطيعون أن يقروا الأمرين المتناقضين » .

إن حال المرأة لم يتحسن لمجرّد أن العالم خرج من مرحلة الصيد إلى مرحلة الزراعة . إنما تحسن بالحركات الدينية التي قادها الأنبياء في الحقب المختلفة من تاريخ البشر . فالاعتقاد المسيحي بأن الروح الخالدة التي في الإنسان ، هي النفس الحقيقية الدائمة التي قد كتب لها أن تعيش الحياة الأبدية . هذا الاعتقاد غيّر تقدير قيمة النفس الحقيقية للمرأة ، فجعل روحها كروح الرجل

لا يمكن أن تثمن، وبذلك حاول المسيح أن يحسّن حالها . ومع ضعف هذه الحركة ضعف شأن المرأة فصار شأنها –حتى في بيت أبيها – شأن الخادم . وكان أبوهـا يستطيع أن يبيعها إذا كانت دون سن الرشد ، وإذا مات أبوها كان للأبناء أن يتصرفوا بهـا كما يشاؤون وتهوى أنفسهم . ولم تكن البنت ترث شيئاً إلا حين لا يكون وارث من الذكور .

وما أن ظهر الإسلام حتى رفع شأنها الاجتماعي مرة أخرى، معلناً نداء الله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيباً».
(النساء : ١)

هذه الآية وثيقة عظمى للمساواة والكرامة للمرأة . لقـــد كانت رسالة عظيمة لتحرير المرأة وإطلاقها من أسارها ، ولرفع مستوى كرامتها وحقوقها بشكل مدهش ، حتى ليستحيل أن يخطر ببال إنسان أي شيء أرفع أو أسمى . لقد ضمن الإسلام للمرأة حقوقاً لم تكن قـــد نالتها من قبل ، وساوى بينها وبين الرجل مساواة تامة في الحقوق والواجبات القانونية جميعاً .

كانت هذه الحركة الدينية أشد القوى دفعاً ، فقد أحدثت ثورة شاملة في وضع المرأة الاجتماعي ومكانتها . فهل يستطيع أحد بعد أمام هذه الحقائق ، أن يزعم أن كل هذا ، إنما كان لعوامل اقتصادية ؟ ولعل قائلاً يقول : إن هذه الأوامر الدينية

نفسها نتيجة للبيئة المادية ، وإن العوامل الإقتصادية وحدها هي التي ولدت هذه الأديان ، ولذلك لم يكن ما جاءت به الأديان وحياً من عند الله إلى الأنبياء ، وإنما كان من متطلبات الزمن في ما يتعلق بالضرورة الإقتصادية ، غير أن الناس البسطاء قد ضُلّلُوا فاعتبروها هدى من الله . لقد عبر عن هذه الأفكار فريدريك إنجلز في كتابه (ضد دهرنك) ، فقال : « ليس الدين سوى انعكاس خيالي وهمي في أذهان الناس من القوى الخارجية التي تسيطر على حياتهم اليومية ، وهو انعكاس تتخذ فيه قوى هذا العالم شكل قوي فوق المادة » [1] .

ولكن أفكار ماركس لا تدعمها حقائق التاريخ ، فإذا كانت أساليب الإنتاج تعتبر حقاً القواعد الحقيقية التي تقرر كل البنيان الذي يشاد عليها ، والدين جزء من هذا البنيان ، فسنضطر إلى أن نصل إلى أن تماثل أسلوب الإنتاج يجب أن يؤدي إلى تماثل الحركات الروحية والنظم التي ينتجها .

ولكن الأمور في العالم تختلف تماماً . فنحن نجد أن مئة دين ودين تعيش كلها متجاورة في ظروف اقتصادية واحدة . فلو كان الدين مجرّد إنعكاس للظروف المادية التي يعيش فيها الناس لما وجد أكثر من دين واحد في وقت واحد . ولكننا نجد أن الإسلام والمسيحية والهندوكية وعشرات الأديان الأخرى تسيطر

---

(١) Anti - Duhring , P. 353

على عقول ناس يعيشون في ظروف إقتصادية واحدة . لقد عاش الهندوس والمسلمون في ظروف إقتصادية واحـــدة يسودها نوع واحد من أساليب الإنتاج مئات السنين ، ولكن هذه القوى ، مع كل قوتها، أخفقت في أن تصهر هذه الطوائف في كتلة واحدة. فهم اليوم مختلفون اختلافاً كبيراً في الدين كما كانوا مختلفين قبل آلاف السنين .

إن النظرة المادية للتاريخ تقتضي أن الظروف المادية في الهند كان يجب أن تولد ديناً واحداً يبتهج الهندوس والمسلمون باتباعه ، وبذلك يتركون العهد الذي كانوا يعيشون فيه طائفتين مختلفتين. وكذلك الأمر في الأنظمة الأخرى والأخلاق . إن صحائف التاريخ ملأى بالبراهين على أن الأنظمة المختلفة نمت حـــتى في أحضان بيئة مادية واحـــدة . إن الرومان ، وكذلك المسلمون الأولون ، هم في التقسيم الماركسي المعـــلوم للعهود التاريخية ، ينتمون إلى مجتمع الرقيق ، أي أن البنيان الإقتصادي للمجتمع الروماني ، وكذلك البنيان الإقتصادي للمجتمع الإسلامي الأول كانا يرتكزان على قاعـــدة الاسترقاق . وكلاهما كان يستخدم وسائـــل إنتاج متماثلة ، وكانت أساليب التوزيع نفسها تقريباً . وطبيعي إن على المرء ، حسب النضرية الماركسية ، أن يستنتج أن نظام الرق في فترة امتلاك العبيد ، يجب أن يكون نفسه في كلا المجتمعين . وكذلك يجب أن تكون نظرة السادة الرومان والسادة المسلمين نحو عبيدهم متشابهة . ولكن هـــذا هو التاريخ

ينقل لنـا أن وضع العبيد عند الرومان كان يدعو إلى الرثاء إلى حد بعيد . « كان العبيد ، سواء من كان منهم من أهل البلاد أم من الأجانب ، من أسر في الحرب أو اشتري بالمال ، كانوا كلهم يعتبرون مجرّد أثاث . فقـد كان لسادتهم أن يبقوهم أحياء أو يقتلوهم . وكان كل نبيل من نبلاء الامبراطورية يملـك آلاف العبيد ، وكانوا يعذبون أنواع العذاب الذي لا يوصف، ويجلدون جلداً لا رحمة فيـه حتى إذا كان الذنب بالغ التفاهة » . إنهم في الحقيقة لم يكونوا يعيشون ، وإنمـا يتنفسون ، وكانت أنفاسهم مجرّد تنهدات . لقد كانت الحياة عبئاً عليهم . أما معاملة العبيد عند المسلمين (الذين كانوا يعيشون في تلـك المرحلة نفسها من مراحـل التطور الإقتصادي) فكانت تختلف تماماً ، إذ كانت تمتاز على معاملة الرومانيين للعبيد امتيازاً لا حدود له أبداً . فقد سمح الرسول الكريم للأرقـاء أن يشتروا حريتهم بالأجور التي يتقاضونها عن أعمالهم . وكذلك قـال بتسليف مبالغ من المال للعبيد من بيت المال ليشتروا حريتهم . ووضع واجب الإحسان إلى العبد في منزلة صلة ذوي القربى والجار ورفيق السفر وعابري السبيل [١] . وشجع على عتق الرقيق إلى أقصى حد ، وإعطائهم

---

(١) يشير إلى قوله تعالى : (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجـار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل ، وما ملكت أيمانـكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً) . النساء – ٣٦

مع العتق شيئاً من المال الذي أعطاه الله للمسلمين ، وحرم أن يستغل السادة سلطتهم على إمائهم فيكرهوهن على البغاء ، ووعد بأن يسبغ رحمته على من يقع عليها الإكراه . وحرم على السادة أن يكلفوا عبيدهم بأكثر مما هو معقول وعادل . ثم إنهم أمِروا بأن لا يخاطبوا عبيدهم أو إماءهم بكلمات تغض من مكانتهم ، بل بالإسم المليء بالعطف (فتاي وفتاتي) . كذلك كان الأمر بأن يُلبَس العبيد ويُطعَموا مثل سادتهم وسيداتهن تماماً . وفوق كل ذلك ، كان الأمر بألا تفصَل أمٌ عن وليدها ولا أخ عن أخيه ولا والد عن ولده ولا زوج عن إمرأته ولا قريب عن قريبه [1] .

ما أكبر الفارق بين نظرة الرومان ونظرة المسلمين نحو عبيدهم! هذا لغز لا يستطيع الماركسيون قط أن يحلوه بنظريتهم يقول إنجلز في رسالة له إلى فرانتس ميرنغ : « إن صورة الحقبة الزمنية ، كما تنعكس في عقل الإنسان ، يعينها شكل الإقتصاد والظروف الإجتماعية التي تنتج عنه . وهذه الصورة المنعكسة تكوّن بيئة عقلية تعمل كوسط يتكوّن من أفكار ومشاعر ، يتلقى فيه [2] الإنسان — حسب مركزه الاجتماعي — انطباعاته ومشاعره وآراءه [3] . إلا أن الظروف الحقيقية في العالم تختلف

---

(١) Syed Amir Ali, The Spirit of Islam , 263 - 4

(٢) أي في هذا الوسط .

(٣) Letter to Franz Mehring , Jan , 25 , 1894

كثيراً . فنحن نواجه كل يوم أناساً ، هم على كونهم من طبقة واحدة ومجموعة واحدة ، بل وأسرة واحدة، ذوو آراء تختلف تماماً . وليس الأفراد وحدهم ينمون على خطوط مختلفة تمـــام الاختلاف ، بـــل حتى المدنيات . إن أسلوب الإنتاج عند أمم كثيرة العدد كان مشابهاً كل الشبه لما كان عند الإغريق ، ومع ذلك لم يُنتِج أحد منها فناً ولا مدنية يمكن أن تقارن قط بفن الإغريق أو مدنيتهم . لقد انبثقت مدنية مايا [1] وسط وابل الأمطار الإستوائية وخضرة غواتيمالا وهندوراس البريطانية ،

---

(١) مـايا Maya كلمة تطلق على الهندي الذي ينتمي إلى أوسع وأهم قبائل الماياويين التي تتكون أغلبية كبيرة من سكان شبه جزيرة يوكاتان Yucatan شمال غواتيمالا وهندوراس البريطانية . كان الماياويون من أرقى هنود أمريكا مدنية. فكانوا أول شعب هندي ابتكر أسلوب الكتابـة الهيروغليفية وأنتج الورق والكتب . كان تقويمهم المعقد يعتمد على الملاحظة الفلكية . وتحتوي أنقاض مدنهم على معابد وقصور ذات تصاميم تـــدل على المهارة ونقوش زاهية . أما معرفتنا بتاريخهم السياسي فقليلة . ويبدو أن هذه القبائل قـــد حصلت على درجة ما من الوحدة السياسية ، لا سيما في القسم الأوسط والجنوبي الشرقي من إقليمهم ، في الفترة التي تقع بين ٢٠٠ و ٦٠٠ تقريباً بعد الميلاد، والمعروف بالامبراطورية القديمة ، أمـــا الامبراطورية الجديدة ، فقد تركزت تقريباً في يوكاتان . وتبعها فترة نزاع على الزعامة بين دول الولايات في الشمال ، وظهور الكاكشيكيين Cakchikels والكويشيين Quiches في غواتـــيمالا ، ونشوب حروب مع التولتيكيين Toltecs وبعدئذ مع الازتيكيين Aztecs دامت حتى تغلب الاسبانيون على أكبر القبائل والمدن في القرن السادس عشر. أما يوكاتان: شبه جزيرة تقع جنوب شرق المكسيك .

ولكن لم تنبثق حضارة كهذه عن وحشية ، وفي ظروف تشبه الظروف على الأمزون والكونغو – كيف يفسّر الماركسيون هذا ؟ إن تأثير البيئة الإقتصادية على الأفراد وتأثيرها بواسطتهم على المجتمع حقيقة لا يستطيع أحد نكرانها . غير أن ردّ الفعل عند الأفراد يختلف اختلافاً كبيراً بين واحد وآخر . وهـــذا يعتمد على شخصيات الأفراد والبنيان الأخلاقي للمجتمع الذي يعيشون فيه . وليس يعوزنا أمثلة تساندنا في أنه من عائلة ذات رجال أغنياء ظهرت جذوة العاملين الاشتراكيين الذين أخذوا على عاتقهم قضية الفقراء وتحمسوا لها كثيراً ، ولم يترددوا حتى في أن يضحوا بحياتهم الغالية من أجل قضيتهم ، ولو أن الطريق الذي كان العقل يقضي بأن يسلكوه هو أن يجمعوا كل أغنياء البـــلاد ويقضوا بعزم قضاءً مبرماً على أية حركة تقوم لتهاجم مصلحتهم الثابتة التي لا شك فيها. لقد أثار كارل فيدرن ملاحظة مهمة جداً حين قال : « إن ظهور هؤلاء الرجال الذين فتحوا لجيلهم جوانب جديدة في التفكير أو الذين قادوا جيلهم في بعض المواقف الدقيقة ليس قط مرتبطاً أو معتمداً على ظروف الإنتاج فـــإذا أراد أحد أن يقول إن تطور قوى الإنتاج ، وظروف الإنتاج الموجودة هي سبب ولادة أمثال (كانت)[١] و(نيوتن)[٢]

---

(١) Kant

(٢) Newton

و (روسو) [1] و (ميرابو) [2] و (غوتة) [3] و (نابليون) [4] من الرجـــال الذين امتد تأثيرهم إلى قسم كبير من الأرض ودام وسيدوم زمناً لا يعرف مداه ، فإن عليه أن يبرهن ويوضح لماذا وكيف سببت ظروف الإنتاج مولد هؤلاء الرجال في ذلـــك الوقت بالذات ، وإلا كان ادعاؤه كلاماً باطلاً لا يعدو أن يكون قد جاء به اعتباطاً [5] .

ولهذه النظرية جانب آخر . فنحن إذا فرضنا أن الأخـلاق في عصر مـــا مجرّد إنعكاس لأسلوب الإنتاج الذي يعيش فيه جماعة من الناس نتج من ذلك أن الأخلاق في كل حقبة تاريخية تالية ، لا بـــدّ أن تكون حتماً أسمى من أخلاق العصر الذي سبقها ، لأننا قد علمنا من ماركس أن النظام الإقتصادي الذي يوجد في حقبة معينة من التاريخ يحـل محله دائماً نظام أرفع لأن قوى الإنتاج الجديدة المتولدة فيه قد نجحت في هدمه . وبما أن النظام الإقتصادي الجديد الناشىء من القديم هو بصورة عامـــة تقدم وبصورة درجة أرفع من العدالة الإجتماعية ، فالواضح أنه يجب أن يـأتي معه بأخلاق أسمى . لو كان التاريخ سجلاً لتقدم

---

(١) Rousseau

(٢) Mirabeau

(٣) Goethe

(٤) Napoleon

(٥) Karl Federn المصدر السابق ، ص ٩٦ — ٩٧ .

مستمر من جميع نواحيه لكان هـــذا حسناً . ولكنه بالمقدار نفسه سجل لفساد وانحطاط . ورغم الخطوات الواسعة الهائلة التي استطاع الإنسان الحديث أن يخطوها في تسخير قوى الطبيعة لخدمة حاجاته المادية ، ورغم التقدم الذي يحرزه العلم كل يوم في شكل اختراعات لا تخطر للإنسان في الخيال، فإن الأخلاق عند عامة الناس ليست بخـــير أبداً فهم قساة وأنانيون وفاسدون . ويعترف (جود) [1] بذلك صراحة إذ يقول : « لقد أعطانا العلم قوى تليق بآلهـــة ، ونحن نجلب لاستخدامها عقليات صبيان ووحوش .. أنظر إلى الطائرة التي يدوي صوتهـا وهي تخترق السماء الصافية في الصيف، لقد تظافرت في صنعها معرفة الإنسان بالرياضيات وعلم الحركة والآليات، ومعرفته بالكهرباء والاحتراق الداخلي وعبقريته في تطبيق المعرفة ، ومهارته في صنع الخشب والمعادن ، وهي جميعاً توحي بأن مستوى مخترعيها فوق مستوى البشر . ثم إن الجرأة والعزم والشجاعة التي أبداهـا الطيارون الأوائل كانت صفات أبطال . أما الآن فانظر إلى الغرض الذي من أجله استخدمت الطائرة الحديثة ، والذي يبدو أنها ستظل تستخدم من أجله بازدياد» . إنه «إلقاء القنابل التي تدمر وتخنق وتحرق وتسمم وتقطـّع أوصال أناس عُزّل » [2] .

---

(١) Joad

(٢) A Guide to Modern Wickedness , pp. 262 - 263.

فإذا كانت الأخلاق إنعكاساً لأسلوب الإنتاج ، فقد كان يجب أن تكون أخلاق زماننا هذا أسمى الأخلاق . إن أساس هذا الوهم الذي وقع فيه ماركس وأتباعه ، أنهم لم يفرقوا بين تقدم الفن الآلي والتقدم الأخلاقي .

فإن بين الوعي الأخلاقي والوعي العقلي عند الإنسان فرقاً هائلاً . ويرجع أصل هذا الخطأ إلى دارون الذي أكد على فكرة بقاء الأصلح في عملية التطور. ومن هذه الفكرة استنتج ماركس خطأ أن التطور الإجتماعي كان في الحقيقة تقدماً إجتماعياً. وفضلاً عن ذلك ، كان التقدم السريع في علم الفنون الصناعية ، وفي الصناعة في القرن التاسع عشر أمراً آخر جعله يعتقد بأن التيارات الرئيسة للظواهر الإجتماعية كانت كلها تؤدي إلى التقدم الإجتماعي ولكن الأخلاق ليست انتصاراً على الزمان والمكان ، بل على أهواء المرء. لذا فهي أمر يتعلق بالإرادة وبتوجيه النفس في تلبية متطلبات قانون أسمى . لذا فهي تتقدم وتتأخر وفق إرادة الناس ، فقد تصل في وقت ما إلى الذروة ، ثم تتردى في ما بعد إلى الحضيض. إن ذلك يعتمد اعتماداً تاماً على اختيار الناس الذين لهم استعداد لكي يوجهوا حياتهم وفقاً لمقاييس أخلاقية معينة . وهذا يوجب أن تتبعه تضحية اختيارية منهم . لا يستطيع أحد أن ينكر أن المسلمين الأولين بلغوا بقيادة الرسول الكريم والخلفاء الراشدين الأربعة ذرى سامية من الأخلاق لم يصل إليها العالم الإسلامي بعدهم أبداً . كان المجتمع في زمانهم ذا نظام تام ،

فكان كل امرىء يغار على حقوق غيره ، فلم يكن استغلال اقتصادي ، ولم يكن تمييز في اللون ولا عصبية لعنصر . كان المسلمون الأولون دائماً أتقياء ملتزمين بدينهم في أعمالهم ، لا تفارقهم خشية الله ولا الاخلاص لدينهم . كانوا دائماً مستمسكين بالمبادىء السامية التي علمهم إياها محمد ﷺ لا يتخلون عنها في السلم والحرب ، وفي الخيام والمعسكرات . ولكن لما أقام الأمويون حكم الفرد انخفض مستوى الاخلاق عند الشعب ، فلم يبق الأمراء الأمويون رؤساء لدولة كبيرة يحكمون لمجرّد إسعاد الناس ورفع شأن الدين ، وأخذ الشرف والاستقامة يذوبان ، وبدأت الشهوة النَّهِمَة إلى الحكم تنخر مقومات حياة المجتمع . فذبح الناس وانتهكت حرمات النساء واسترقّ الأطفال . ثم لما جاء إلى الحكم عمر بن عبد العزيز ارتفع التيار ، فلقد كان أميراً فاضلاً وحاكماً صالحاً ومسلماً تقياً يخاف الله فلم يدخر جهداً في جعل حياته الشخصية وحياة رعيته من المسلمين كحياة المؤمنين الأولين . وحين جاء العباسيون إلى الحكم ساءت الأخلاق مرة أخرى بالرغم من أن استبداد هؤلاء الحكام ساعد على الازدهار العقلي والرفاهية المادية للأمة الإسلامية . لقد كان ما حققه المسلمون عقلياً يمثل دون شك تقدماً كبيراً ، ومع ذلك فقد كانت الاخلاق تنحط .

إن المدنية التي تمثل التقدم المادي تتقدم دائماً في سيرها بشرط ألا تحدث كارثة تقطع السير الإجتماعي المتصل . وفي

العادة تبدأ مدنية جديدة من حيث انتهت المدنية السابقة. وهي تبني كيانها على أسس المدنية القديمة وتستفيد فائدة تامة مما سبق إنجازه.«ومع اتساع مناطق المدنية وبالأساليب الراقية لتسجيل الاختراعات، يصبح أي مكسب فني علمي أو ذي علاقة بالمنفعة العامة ملكاً دائماً ضمن التراث الإجتماعي، وشرطاً يعتمد عليه الحصول على المزيد من المكاسب». ولكن أمر الحضارة يختلف عن هـذا، فهي تمثل كيان الشعب العقلي، وطريقته الخاصة في النظر إلى الأشياء وتقويمه لحوادث العالم. وبما أن جذرها مغروس في فكر الإنسان، فليس أكيداً أنها تسير نحو ما هو أرقى أو أحسن. يقول ماك ايفر [1]: «وما زالت السيارة منذ أن اخترعها الإنسان في تحسن دائم، وما زالت وسائل النقل تزداد سرعة ومقدرة. فهي أحسن وأرقى بكثير من وسائل النقل التي استخدمها الإغريق».

ولكن هل نستطيع أن نقول الشيء نفسه عن معاملاتنا مع الناس؟ ليس لدينا ما نبرهن به على ذلك. فإذا كانت المحركات البخارية اليوم أحسن من حيث المقدرة من المحرك الذي كان أيام مخترع المحرك البخاري، فليس شرطاً أن تكون معاملاتنا مع الناس اليوم أحسن أيضاً. «إن الحضارة لا تسير سيراً منتظماً إلى الأمام فهي معرّضة للتقهقر كما هي معرّضة للتقدم. وأن

(١) Mac Iver، المصدر السابق، ص ٥٠٠.

ماضيها لا يضمن لها مستقبلها » .

وإن ماركس ، بالرغم من نتاجه العقلي الكبير ، لم يفرق بين المدنية والحضارة ، واستنتج خطأ من اعتقاده بـــأن كل نظام إقتصادي يمثل تقدماً بالنسبة للنظام الذي سبقه ، أن هذا النظام سيجلب معه أيضاً أخلاقاً أسمى مما كان في ظل النظام الإقتصادي السابق .

ولكن سجلات التاريخ ترفض هـذه النظرة رفضاً مطلقاً . ولعل حرص ماركس على أن يصور التاريخ ، على أنه علم دقيق هو الذي دعـاه دائماً إلى أن يزعم أن المجتمع تحكمه قوانين صلبة فوق قوة البشر. ولأجل أن يصل إلى هذه الغاية سلك في تفكيره هـذا المسلك وفسّر كل الحوادث الكبرى على أساس التغير في أسلوب الإنتاج موحياً بذلك أن كل تقدير أساسي للقيم ، إنما هو مجرّد نتاج ثانوي للظروف الفنية العلمية . وهـذا يعني أن نظرة الإنسان تقررها هذه الأمور ولا إرادة له فيها . فإذا كان الأمر كذلك ، فمعناه أن الإنسان لن يكون مسؤولاً عن تصرفه، لأنه وليد الظروف المـادية التي يعيش فيها . ويقضي المنطق بناء على هذا أن كل أنواع الظلم والاستغلال والفجور لها ما يسوغها ، إذ أن هذه جميعاً نتائج لأساليب الإنتاج لا مفر منها . وهـــذا هو السبب في أن الشرف والصدق والعدل لا مكان لها في كيان الماركسية .

فإن هدف الشيوعيين الوحيد هو أن يدحروا أعداءهم. وأما

المشاكل الأخرى جميعاً فهي في نظرهم مجرّد مشكلات علمية مبنية على ظروف افتراضية لم تتحقق في عـالم الواقع ، وبذلك تكون خارج الموضوع . « إن وجود طبقة العمال (بروليتاريا) في هذه الحيـاة هو لمجرّد أن يقوموا بالثورة . لذا فكل قوتهم وعزمهم واندفاعهم يتصف بالقسوة . وإن حركة العمال متحررة من أساطير الدين ومن الديمقراطية والأخلاق السامية التي هي كلهـا سلسلة صنعتها الطبقة المتوسطة (البورجوازية) للسيطرة على الطبقات الفقيرة واستعبادها . وما من شيء يمكن أن ينسب إلى الأخلاق إلا مـــا يمهّد للقضاء على الرأسمالية قضاءً تاماً نهائياً . والقانون الأعلى هو إزدهار الثورة ونجاحها » [١] .

إن فلسفة الحياة هذه إذ أبعدت كل المشاعر الرقيقة قـــد جعلت الإنسان وحشاً حقيقياً ، وأعطت الماركسيين مسوغاً لأن يكونوا « غـــير عاطفيين وقساة ومرتابين إلى حد ما في صدق إخلاص الناس وطيبة بواعثهم وأعمالهم ، رغم ما يدعونه (أي الماركسيين) من غرض سام نبيل . وبمـا أن تقدم المجتمع لا يأتي إلا بالتصادم والصراع الدامي ، فإن الخير النهائي لا يمكن أن يكون إلا للفريق المحق في المعركة » [٢] . وكل مـا سوى ذلك مجرّد نظريات وخداع . وهذا قد مكّن الاشتراكيين جميعاً من

---

(١) Dr. Funk and Goebble

(٢) Max Eastman , Stalin' S Russia, P. 166

أن يتمتعوا باسم العلم بكل امتيازات الذين يرون أنفسهم مستقيمين أخلاقياً في تصرفاتهم ، ومن أن يندفعوا باسم الفهم العقلي المنطقي في احتقار وازدراء مصدرهما التعصب والتحامل.

لقد بحث برتراند رسل آثار هذه الفلسفة في كتابه (الآمال الجديدة للعالم المتغير) ، فقال : « يعتقد ماركس ، كما يعلم كل امرىء ، إن صراع الطبقات كان دائماً أكبر أسباب التغيّر الإجتماعي وسيبقى كذلك حتى ينتصر أتباعه ، وبعد ذلك سيعيش الناس سعداء إلى الأبد ، في نهاية القصة الخرافية . إن ماركس نفسه لا يهتم بالعدالة ، ولكن بالاستياء والتذمر . وهو يقول أنه لا مفر من أن يكون الذين حرموا من الامتيازات مستائين ومن أن يكونوا أغلبية ، وبذلك يكون عدم الاستقرار والثورات وحرب الطبقات وما سواهما . وليس الباعث على كل هذه العملية في النظام مبدأ من مبادىء العدالة ، وإنما المبدأ السلبي المحض ... مبدأ الكراهية » [١] .

وفي النظرة المادية للتاريخ التي جاء بها كارل ماركس ناحية مهمة أخرى . فهو يعتقد أن الأفكار والإتجاهات في عصر ما ، إنما هي نتاج مرحلة التطور الإقتصادي التي تمّ الحصول إليها . ولذلك فلا قانون مطلقاً ولا أخلاق مطلقةً في هذا العالم ، وإنما هذه كلها إنعكاسات لأسلوب الإنتاج . ولكن في هذه النظرة

---

(١) Bertrand Russel, The New Hopes for the Changing Worla, P. 286

تناقضاً خطيراً فهو من ناحية لا يرى شيئاً أبديـــاً ، ومن ناحية أخرى يعرض فكرته عن التاريخ على أنها مطلقة . وهذا تناقض لم يستطع أحد من تلامذة ماركس أن يزيله . فنحن إذا اعتقدنا أن فلسفة عصر ما ، ناتجة عن البيئة المادية له كان هــذا الاعتقاد منطبقاً أيضاً على الماركسية نفسها ، فأفكار ماركس لا يمكن أن تكون صحيحة ومنطبقة على كل الأزمنة لأنها (أي أفكاره) هي أيضاً إنعكاس للعصر الذي عاش فيه . فـلا بدّ أنه قد كان في ذهنه ظروف المجتمع في ذلك العصر ، وكل ما جاء به ربمـا كان ملائماً لزمانه ، هو ولا يمكن بعد زمانه ذاك أن يكون صالحاً للعصور التالية . فمع تغير الزمن لا بدّ لفلسفته أن تتغير. ولكن ما من ماركسي يريد أن يقبل هــذا . فهم يعتقدون أن نظراته صحيحة في كل الأزمان . أي أنها قيم دائمـة للمجتمع الإنساني لا تتغير . وقـــد سددت هذه الفلسفة ضربة عنيفة للأخلاق . فقواعد الأخلاق ليست فيرأي الماركسيين أشكالاً من الأفكار تكونها نفس الإنسان عن بعض العوامـل الحقيقية والملموسة في هذا العالم ، وقانوناً للفضائل وتعبيراً عن استجابتها لما تدركه ، وإنما هي عندهم نتاج مرحلة معينة منمراحل التطور الإقتصادي وصل إليها المجتمع . وقـــد انحط هذا بالشيوعيين إلى مستوى (خدم للزمن) لا أكثر ، يعيشون في هذه الحياة بلا مبدأ .

وعلى أساس هذه النظرية ، فـــإن التاريخ آخذ في تقدمه الحتمي نحو هدفـه . ولذلك ليس للفرص ولا لعظماء الرجال أية

يـد في سير الحوادث ، فهي سائرة من تلقاء نفسها على خطوط معينة. وليس في وسع حادثة ما، مهما جلّ شأنها، ولا شخصية مهما كانت عظيمة ، أن تصنع شيئاً . ولكننا نجـد أن الأحوال تناقض ذلك .

وقـــد أعطى برتراند رسل بعض الأمثلة الممتازة لحوادث وقعت مصادفة وكان لهـا أثر حاسم ، فقال : « لقد كان مجازفة أن تسمح الحكومة الألمانية بأن يعود لينين إلىروسيا عام ١٩١٧ ولو أن ذلك الوزير المختص قال : « لا » ولم يقل : « نعم » التي قالهـــا فعلا لكان صعباً أن نتصور أن الثورة الروسية كانت ستتخذ السبيل التي اتخذتها.ثم لو أن (جنوا) لم تسلم (كورسيكا) إلى فرنسا عـــام ١٧٦٨ لكان نابليون الذي ولد فيها في السنة التالية إيطاليا ، ولمـا كانت له في فرنسا حياة سياسية . والآن لا يكاد يستطيـع امرؤ أن يدعي إدعاء جدياً بأن تاريخ فرنسا كان سيكون نفسه بلا نابليون » .

هـذه الأمثلة يمكن أن تتضاعف أضعافاً كثيرة جداً . ففي التاريخ ساعات حاسمة لو اتخذت فيها الخطوة الصحيحة فيالوقت الملائم لنجت أمة كاملة من الدمار . ومن ناحية أخرى سبّبَ ضياعُ لحظة واحدة خسارةً للمجتمع كله لا حصر لهـــا . إن وقوف أبي بكر واتخاذه قراراً سريعاً بقتال الذين رفضوا أن يدفعوا الزكاة ، أنقذ الاسلام من الدمار . ولو تأخر القرار لحظة لكان معنى ذلك انتحاراً لكيان الجماعة المسلمة كله.وأن تحذيره

الحكيم الذي أطلقه بصوت مخيف، وقال فيه أنه لن يسمح لأحد أن يمتنع عن دفع شيء من زكاته حتى ولو كان عقال بعير ، هذا التحذير قد كبت كل القوى التي خرجت لتقضي على الاسلام. إن بُعد نظره وصفاء ذهنه مع ما عنده من سرعة العزم والتصميم قد تضافرت كلها للقضاء على الشرّ في مهده ، ذلك الشر الذي لو لم يُقضَ عليه بقوة في ذلك الوقت لنسف استقرار العالم الاسلامي كله . كذلك غرس ذكاء لينين ودهاؤه الاشتراكية في روسيا ، البلد الزراعي . إن الفكرة الماركسية تقضي بأن تحدث الثورة الاشتراكية في الأقطار التي يكون فيها الانتاج سائراً علىمقياس واسع بمساعدة الآلات، إذ أن الصراع الطبقي يكون في ذروته في هذه البلاد . ولكننا نجد أنه بقيادة لينين الحكيمة القديرة حصلت هذه الثورة في بلاد متأخرة صناعياً ، هي روسيا . إذ أن لينين حين وجد السم ينخر في كيان روسيا السياسي استغل الموقف، وقلب نظام روسيا اشتراكياً . ولدينا مئات الأمثال التي تزيد هذه النقطة . إن الماركسيين يريدون أن يعطوا القوة إلى تركيب منهجهم في التفكير فينسبون ظهور عظماء الرجال في الفترات الحرجة من تاريخ البشرية إلى الضرورة . فيزعم إنجلز أن الرجل العظيم « لم يأت مصادفة ، حتى أنه لو لم يكن ، لجاً بدلاً منه رجل آخر » .

ولكن لم يأت أحد لينقذ بلاد الاغريق أو روما في العصور السالفة ، ولا جاء أحد لينقذ اسبانيا عام ١٩١٣. إن القول بأنه

أو قوياً ما هو إلا نتيجة لهذا . لذا فإن وجود الفرد غير ذي أهمية قط .

ويرى هيغل الرأي نفسه عن دور الإنسان مع اختلاف بسيط ، فهو يرى أن ما يحصل في هذا العالم من تغير ما هو إلا مجرّد إنعكاس حتمي لتقدم (روح العالم) ونموّها . وهي تسير نحو تحقيق وجودها الذي يتم بالصراع بين النظريات المتناقضة . لذا فليس في وسع فرد أو جماعة من الناس أن ينفذوا إرادتهم نفسها . فهم جميعاً الآلات المتواضعة التي ينفذ بها تصميم (روح العالم) . وقد يشعر العظماء بالزهو إذ يسمون أنفسهم أبطالاً ، ولكنهم ليسوا إلا دمى تحركها (روح العالم) . وشبيه بذلك ما يراه ماركس فهو يعتبر الإنسان نتاجاً أنتجتهوسائل الإنتاج. فمجال فكره يتلون بلون واحد هو لون المادة المحيطة به ، فهو لا يستطيع أن يختار لنفسه أي طريق بصورة مستقلة ، بل عليه أن يدور في تيار الزمن الذي لا يجري إلا وفق ما تمليه الضرورة الإقتصادية ، لذا فليس الإنسان على هذا الأساس إلا كائناً آلياً لا إرادة له. أما الإسلام فإنه يرفض رفضاً قاطعاً أن يوضع الإنسان هذا الموضع الذي يحرم فيه من الكرامة الإنسانية كلها ومن حرية الاختيار . وهذا أهم اختلاف بين النظرة الغربية والنظرة الإسلامية للتاريخ في كلمات موجزة .

إن الإسلام منذ الوهلة الأولى لا يعتبر الإنسان مجرّد كائن حي ، بل يضعه في منزلة رفيعة هي خلافة الله على الأرض .

(وإذ قـال ربك للملائكة : إني جاعل في الأرض خليفة . قـالوا : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبّح بحمدك ونقدّس لك ؟ قال : إني أعلم ما لا تعلمون) .

سورة البقرة (٣٠)

(وإذ قال ربك للملائكة : إني خالق بشراً من صلصال من حمإٍ مسنون ، فـإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين) .

هنا يفارق الإسلام الغرب مفارقة تامة ،فعلماء الغرب يعدّون الإنسان حيواناً عاقلاً، أما القرآن فيرفعه إلى المكانة السامية التي هي خلافة الله على الأرض . وبفضل هذا المركز الذي وضع الله فيه الانسان بين مخلوقاته صار له الحق في أن يستخدم كل شيء في هذا العالم استخداماً كاملاً .

(ألم ترَ أن الله سخّر لكم ما في الأرض) .

سورة الحج (٦٥)

(والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس،إن ربكم لرؤوف رحيم، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ، ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون،

الفاضل لا ينطبق إلا على الأعمال التي يكون للمرء فيها حرية اختيار ، ولا فضيلة في فعل يقسر المرء عليه قسراً . وإننا لا نقدّر فعل الخير حين يفعله المرء إلا لأننا نشعر بأنه كان يستطيع أن يختار فعل نقيض ذلك ، لو أراد . ولكنه بمحض اختياره وإرادته الحرة اتبع الطريق القويمة . يقول الله عز وجل في القرآن الكريم : (إنا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه ، فجعلناه سميعاً بصيراً . إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً) .

سورة الانسان (٢ – ٣)

وإن هبوط الانسان من الجنة يدل على « أن الانسان قد ارتفع من الحالة البدائية للشهوة الغريزية إلى شعور من يعي أنه ذو نفس حرة تستطيع أن تشك وأن تعصي » .

ويؤكد الدكتور إقبال : « إن هذا الهبوط لا يعني فساداً خلقياً . بل هو انتقال الانسان من الوعي البسيط إلى الوميض الأول من الاحساس بالذات وهو أشبه بالاستيقاظ من حلم طبيعي استيقاظاً مصحوباً بالاحساس بهزة منبعثة عن سبب ذاتي في كيانه نفسه . ثم إن القرآن لا يعد الأرض مكاناً للعذاب سجن فيه البشر ، الآثمون في أصل تكوينهم ، بسبب خطيئة أصلية .

إن المعصية الأولى التي ارتكبها الانسان كانت أيضاً أول عمل استخدم فيه حرية الاختيار . وهذا هو السبب في ما قصّ

علينا القرآن من قصة آدم ، وكيف أن الله قد غفر له خطيئته الأولى . وإن عمل الصالحات الآن ليس عملاً يكره المرء عليه ، وإنما هو خضوع المرء للمثل الخلقية العليا بمحض اختياره ورغبة في التعاون بين نفوس حرّة . فالمخلوق الذي تخضع حركاته خضوعاً تاماً للسيطرة خضوع الآلة لا يمكن أن ينتج الخير . لذا فالحرية شرط في الخير . وإن السماح بظهور ذات لها حدود تستطيع أن تختار بعد أن تنظر في قيمة كل سبيل من سبل العمل التي أمامها أمر ينطوي على مجازفة كبيرة ، ذلك أن الحرية في اختيار الخير تتضمن أيضاً الحرية في اختيار نقيضه . وإن أقدام الله سبحانه على هذا يدل على ثقته الكبرى بالانسان. وما على الانسان الآن إلا أن يبرهن على أنه أهل لهذه الثقة »[1].

إذن فهذه الحياة القصيرة نوع من الثقة المقدسة وضعها الله في الإنسان أفراداً أو جماعات ، ليبرهن على أنه أمين في استعمال هذه الثقة . ولئن رفعت هذه الثقة منزلة الإنسان إلى أعلى الدرجات بين المخلوقات ، فقد وضعت على كاهله في الوقت نفسه ما يلازم هذه المنزلة من أعظم المخاطر وأكثرها تحدياً . ولذا أضحى واضحاً أن هذه الحياة اختبار وامتحان للناس يبين كل منهم فيه قيمته . يقول الله تعالى في القرآن الكريم : (وهو

---

(١) Muhammad Iqbal ، المصدر السابق ، ص ٨٥ . وتجد نصاً مشابهاً في ص ٩٩ — ١٠٠ من الطبعة العربية المشار إليها آنفاً . (المترجم)

ثم إن الله سبحانه وتعالى الذي أحكم نسيج هـذه الحياة لا يرمي مكوكه إلى الخلف على نول الزمن دون بصيرة . إنه حكيم في خططه وعادل في ما يقرر ، ولا ينفك يراقب أعمال الناس .

(ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنمـا يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) .

سورة ابراهيم (٤٢)

والحق أن يد الله تتحرك حركة دائمة إلى الأمام وإلى الخلف بمقتضى قانون فتخرج إلى النور الأمم الجديدة وتطمس الأخرى في الظلمات ، ولارتقـاء الأمم وانهيارها قوانين ، ولم يترك شيء ليد مشيئة عمياء . إن الأمم التي ترتفع فتبلغ أوج التقدم والرفاه الاقتصادي ، إنما ترتفع بعد أن تنمي في أنفسها صفات خاصة ، أما الأمم الأخرى التي زحزحت عن منزلتها المرموقة إلى مكان مغمور ، فإنما أصابت هـذا الحظ لأن فيها مواضع ضعف نخرت بنيان مجتمعها وقوى الحياة فيـه . ومن ينظر نظرة سطحية إلى هذا الانهيار يرى أنه نتج عن هجوم خارجي أو عن خيانة بعض رؤسائها . أمـــا الحقيقة فهي أن التدهور نتيجة فساد بطيء وانحطاط لا يشعر بهما المرء ، وهمـا فساد وانحطاط يتجليان في كل جوانب حياة الأمة ، وينخران قوتها . ولا ريب في أن نهاية هذه الأمم قد تؤخر بعض الوقت ، ولكنها لن تصرف عنها قط ولا بدّ أن تحل بها .

(سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) .
سورة الأحزاب (٦٢)

(ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم) .
سورة الأنفال (٥٣)

وقبل أن نبحث موضوع ارتقاء الأمم وانهيارها والأسباب المؤدية إلى ذلك ، نرى أن ننظر في بعض آيات القرآن التي تبين بنظرته إلى الإنسان فذلك في ما نرى أمر مهم .

١ ــ إن الإسلام لا يعتقد بالخطيئة الأولى أو الخطيئة الأصلية وهو بذلك يخالف المسيحية وغيرها من الأديان والآراء الفلسفية .

يقول الدكتور إقبال : « إن التوراة تلعن الأرض بسبب معصية آدم ، أما القرآن فيبين أن الأرض دار سكن للإنسان ومصدر ربح له ، وعليه أن يشكر الله على هذه الدار التي أنعم عليه بها .

(ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون) .
سورة الاعراف (١٠)

كذلك ما من سبب يدعو إلى أن نفرض أن كلمة (الجنة) بالمعنى الذي تستعمل به هنا ، وهو الحديقة ، تعني فردوس الدار

عليهم وحدهم . فإن الله وملائكته لن يسحبوا البشر إلى الأمام. ثم إن الأخلاق تتضمن تأديب النفس وتعويدها النظام والطاعة . كما تتضمن السيطرة على الشهوات وتنظيم الإرادة في السعي وراء مثل أعلى . وهذا يتطلب جهوداً متجددة دائماً في مجال الأخلاق يقوم بها الأفراد أو الجماعات . وما من نجاح خالد إلى الأبد ولا تقدم باق دائم . فقد يبلغ الفرد أو الجماعة بالجهود المتواصلة والمثابرة النابعة من عزيمة مستوى خلقياً معيناً ، فإذا قل الجهد المبذول انحط عنه. لذا فالأخلاق، سواء كانت فردية أو جماعية، يمكن في أي وقت أن تنحط وتنتكس فتؤدي إلى خسران كل ما أمكن بلوغه في السنوات السابقة .

(لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) .

سورة التين (٤ — ٥)

لذا فالأفراد والأمم قد يرتقون أو ينحطون حسب ما يتجهون إليه .

٣ — وثالثاً ، يصرح القرآن بوضوح أن قوانين الله لا يمكن تغييرها ، فهي ليست من صنع ظروف المناخ في الدولة التي تعيش فيها الأمة ، ولا هي ناتجة عن البيئة الاقتصادية ووسائل الانتاج. وهي لا تختلف من زمن إلى زمن ومن مكان إلى مكان . وكل أمة توجه حياتها وفقاً لهذه القوانين تحصل من الفائدة على ما تحصل

عليه أية أمة أخرى سلكت هذه السبيل نفسها . فقـــد أعلن القرآن جازماً :

« فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » .

سورة فاطر (٤٣)

إن هـــذا الطابع العالمي للقوانين الخلقية يرجع إلى أن طبيعة الإنسان لا تتغير . فالحوافز الإنسانية لم تزل نفسها اليوم كما كانت منـــذ فجر الحضارة الإنسانية ، فالغرائز التي هي محور عمل الإنسان لم تزل باقية كما كانت بالرغم من أن مجال النشاط الإنساني قد اتسع ،وصفات الايثار والشرف والصدق والشجاعة المستحبة تنال من الاحترام اليوم مـــا كانت تناله منذ القدم . وإن بقاء طبيعة الإنسان ثابتة لا تتغير هو الذي حدا بالحكيم العربي الشهير ابن خلدون إلى أن يقول : « إن المـاء الذي يجري في الماضي هو الذي يجري في المستقبل ، لذا فعـــلم الاجتماع الذي هو دراسة الحاضر يلقي ضوءاً على التاريخ الذي هو دراسة الماضي ، تماماً كما يزود التاريخ علم الاجتماع بمادة البحث »[1] . لذا فإن الظواهر الاجتماعية عنده تخضع لقوانين لها من الثبات ما يكفي لأن تسبب حوادث اجتماعية تتبع أنماطاً وأساليب منتظمة واضحة ، رغم

---

(١) هذا النص مترجم عن الفقرة الانكليزية التي ذكرها المؤلف ولم يذكر مرجعها من ابن خلدون ، وإنمـــا اقتبسه من : Charles Issawi, An Arab Philosophy of History, P. 7. (المترجم)

أنها ليست مطلقة كالقوانين التي تحكم الظواهر الطبيعية .

(٤) لذا فحوادث الماضي فيها عبرة للناس ، إذ لا بدّ لأهل كل عصر من أن يواجهوا النوع ذاتـه من التعقيدات التي واجهها أسلافهم ، فمواضع الخطر في طريق الأمة تكاد تكون نفسها في الماضي والحاضر . إن التاريخ ، كما يقول القرآن الكريم ، ليس مجرّد قصص يروى عن الأيام الغابرة ، وإنما هو تحذير من المهاوي الواقعة في طريقنا . إن سجل التاريخ ما هو إلا الفنار الذي ينبيء الملاحين الجـدد الذين يمخرون عباب الحياة عن الصخور المهلكة التي قـد تكون خافية تحت سطح بحر الوجود الإنساني الذي لا يدرك غوره : « أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبـة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها » .

سورة الروم (٩)

وهـذا يبين أن الماضي بكل ما فيه من نور مشرق وآلام مبرحة يتكرر متخذاً ثوب المستقبل . إن التاريخ ، كما قلنا ، تحكمه قوانين لا يقتصر تأثيرها على الماضي، بل تؤثر كذلك حتماً في كل ظرف مشابه يطرأ في المستقبل . لذا فإن في حركة جميع القوى التي تنسج تاريخ البشرية عنصر واضحاً هو عنصر الإعادة والتكرار . فالسراء والضراء تصيبان كل أمة، وما في العالم من أمة لم تمسك بعصا السلطة . فالذين لا تطغيهم الأفراح والذين لا تفقدهم السعادة اتزان عقولهم ، والذين لا يسمحون لأنفسهم بأن

ينهاروا تحت وطأة المصائب هم الذين يسمح لهم قانون الحياة بالبقاء والنمو . أمـا الذين لا يستطيعون التماسك أمام الشهوات وفي وجه ضربات القـدر ، فاولئك الذين يجرفون خارج نطاق الوجود الفعّال : « أن يمسكم قرح فقـد مسّ القوم قرح مثله ، وتلك الأيام نداولها بين الناس ، وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين » .

سورة آل عمران (١٤٠)

« إن مع العسر يسرا »

سورة الشرح

« تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي » .

سورة آل عمران (٢٧)

ان ظاهرة اتباع النهار لليـل واتباع الليل للنهار لا ينحصر صدقها في هذه الكرة الأرضية ، بل يتعداه إلى عـالم الحياة . وكذلك فإن نفخ الحياة في الميت ، وأماتة الحي لا يقتصران على الأفراد ، فهذا الأمر نفسه يظهر عند الامم أيضاً. فكلمة (نهار) تمثل السعادة والقوة ، و (ليل) ترمز إلى فقـدان القوة والأفول والانهيار . وإن القرآن حين يأتي بهذا التشبيه ، إنما ينبّه إلى أن الذين تلفهم ظلمـات المصائب والشقاء لخرجون من تحت أجنحة الأشباح التي تغطيهم إلى نور السعادة والمجـد . وكذلك تموت الأمم ثم تولد مرة أخرى ، ولكن يجب أن لا يغيب عن البـال

إن هذه النظرة عن طبيعة الإعادة التي في التاريخ تختلف اختلافاً جوهرياً عن القانون المظلم الذي جاء به نيتشه وهو قانون الإعادة الأبدية الذي بمقتضاه « تأتي جميع الأشياء مرة أخرى ، وأخرى بصورة متشابهة : القوي والضعيف ، الخير والشر ، الأفراح والآلام ، النجاح والاخفاق، بكل تفاصيلها الدقيقة حتى أن كل رجل يعيش في المستقبل مرات لا نهاية لعددها كما قد فعل في الماضي ، وهي ليست حياة جديدة، ولا حياة أحسن، ولا حياة مشابهة ، ولكن الحياة نفسها » . وما من شيء أبغض إلى روح الإسلام من هذا . أن نيتشه يعتقد أن نظام الحوادث في العالم ثابت لا سبيل إلى تغييره ، وإن كلمة (إعادة) ذاتها تعني الثبات .

يقول دكتور إقبال : « إن الماضي بلا شك يبقى ويعمل في الحاضر ، ولكن هذا العمل الذي يعمله الماضي في الحاضر ليس كل ما في الشعور ، فإن عنصر القصد والغرض يكشف نوعاً من النظر البعيد في الإدراك . وإنني أرى أنه ما من شيء أكثر بعداً عن القرآن من فكرة أن العالم تجسيد مادي لخطة استقرت في الذهن من قبل — وأنه نتاج كامل الآن، وكان قد غادر يد صانعه منذ عصور طويلة ، وهو الآن في الفضاء كتلة مادية ميتة لا يفعل الزمن فيها شيئاً ، لذا فهي لا شيء . إن هذا العالم في الحقيقة ينمو . وأنه قابل للتوسع والامتداد إلى غير ما حد ، إذ أنه ربما

يكن في أعماق كيانه حلم المولد الجديد »[1] .

أن اليد الخفية التي تنسج على نول الزمن تأتي إلى الوجود ببساط منسوج يظهر فيه بوضوح تصميم تام لا مجرّد إعادة لا نهاية لهـــا للنموذج نفسه . لقد أعطى بروفيسور توينبي مثالاً يوضح ايضاحاً يدعو إلى الإعجاب طبيعة التغير إذ يقول « إن حركة الدولاب دون ريب حركة إعـــادة وتكرار بالنسبة إلى جزع الدولاب[2] نفسه . ولكن الدولاب نفسه لم يصنع ويركب حول جزعه إلا لأجل أن تستطيـع العربة أن تتحرك بواسطته ، وهو ليس من العربة غير جزء . أما إن العربة التي هي علة وجود هذا الدولاب لا تستطيـع أن تتحرك إلا بفضل حركة الدولاب الدائرية حول جزعه ، فهـذا لا يرغم العربة نفسها على أن تسير كدوارة الأطفال في طريق دائري »[3] لنضع بدل الجزع طبيعة الإنسان الأساسية ، فحينئذٍ سيمكننا أن نفهم تقـدم الإنسانية ومصيرها المتكرر المعاد ، فالبشرية دون ريب تسير قدمـــاً ، ولكن دولاب نشاطها لا يدور إلا حول جزع طبيعتها. وعندما تندفع العربة إلى الأمام ، فإن الجزع نادراً ما يتحرك إلى الأمام

---

(١) Muhammad Iqbal ، المصدر السابق، ص ٥٥. راجع ص ٦٤و٦٦ من الطبعة العربية . (المترجم)

(٢) الجزع هو المحور الذي يدور عليه الدولاب . (المترجم)

(٣) Arnold Toynbee, A Study of History edited by D. C. Somervell, P. 453

أيضاً . إن الثورات التي نراهـا في الأمم تشبه ثورات الأرض . فالكرة الأرضية تمر بتغيرات موسمية خلال السنة ، ولكنها لا تغادر مدارها أبداً . انها تتحرك في الخطوط المرسومة لها . لذا ففي كل يوم جِدّة ، ولكنها صورة للماضي . وهكذا يتضح أن عـدم الاستقرار الفكري الذي يعاني الإنسان الحديث منه ، والمشكلات العديدة التي يواجهها اليوم ليست جديدة ، وإنما هي قصص قديمة لمصائب تكررت مراراً كثيرة مع تنويع بسيط . لقد بينا من قبل إن ما أدعاه هيغل وماركس من أن الموحَّد خير دائماً من الفرضية ونقيضها لأنه يحوي في ذاته العناصر الفعالة منهما إنما هو ادعاء لا أساس له مطلقاً. وكذلك بينا أنه لا أصل للرأي القائل بأن التوفيق بين الفرضية ونقيضها ينتج عنه نظام جديد له خواص كل منهما كما أن التاريخ لا يدعم هـذا الرأي . ففي كثير من الأحوال حين يولد النقيض من الفرضية يحطمها تماماً ، وحينئذٍ يتكون ضدهما ردّ فعل فينعدمان تماماً وتقوم بدلاً منهما حركة جديدة :

«ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين » .

سورة البقرة (٢٥١)

« الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً — ولينصرن الله من ينصره

إن الله لقوي عزيز » .

سورة الحج (٤٠)

هـــذه الآيات تبين بجلاء أن الله لا يعطي أية أمة السيطرة والغلبة الدائمتين . فكل جماعة من الناس تتسلط مدة من الزمن ، وبعد ما تمر هذه المدة تزول من الوجود ، وتقوم فوق رفاتها أمة أخرى . وإن الله ليس له حقد شخصي على أية طبقة من الناس ، وإنما هو سوء عملهم الذي يجلب عليهم الدمار فتولد على أنقاضهم طبقة أخرى .

والسؤال الذي يبرز بصورة طبيعية هو: ما السبب الأساسي لهذا التغيير ؟ والقرآن يجيب بأن التغير قد سببه شيء في الداخل لا الخارج :

« ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

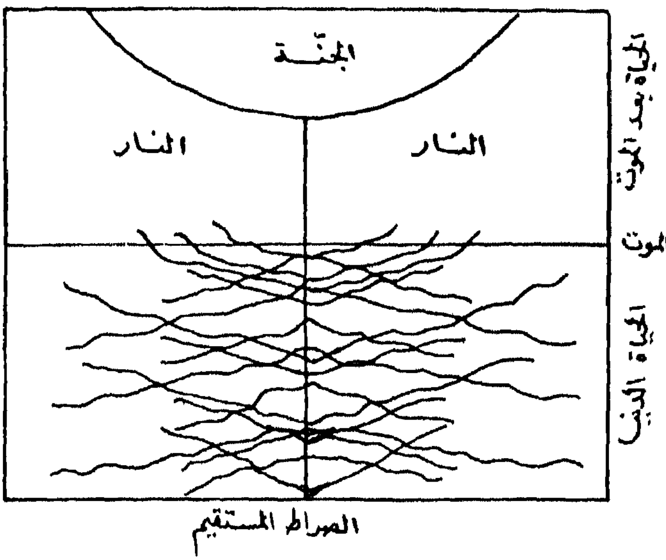
سورة الرعد (١١)

إنها الدفعة الداخلية للحياة ، الروح التي في داخله ، هي التي تحـدث التغير في حياة الفرد والأمم . والتغير الصائب في الفرد والمجتمع لا يمكن ضمانه إلا حين تتغير النفس. إن الفرد عالم قائم بذاته ، فإن فيه صفات لا حصر لها في الرأس والقلب، وأن فيه أهواء متضاربة ، وأذواقاً وميولاً مختلفة . وحـين يتصل البشر ببعضهم يـــبرز الكثير من الأمور المعقدة التي تزداد مع الزمن تعقيداً .

وأنه ليصعب ، بل يستحيل على الأفراد مهما أوتوا من العلم والخبرة أن يسبروا غور كل جانب من جوانب حياة الإنسان بفكر متزن . وهم لا يستطيعون رغم ما أوتوا من عظيم الحكمة أن يضعوا لأنفسهم منهجاً مرتباً محبوكاً تنال فيه كل ناحية من نواحي الحياة الإنسانية العدل الكامل .

وهكذا يتضح أن الافراد أو الجماعات المستقلة من الناس الذين ليست لهم نظرة فيها من البعد ما يكفي لان تبصر من وراء فترات طويلة من الزمن ، أو تحيط بشتى المشاكل التي في الحياة الإنسانية ، لا يستطيعون أن يرسموا لحياة الناس منهاجاً متوازناً يفي بمتطلبات كل ناحية من نواحيها . إن طبيعة الإنسان أشد تعقيداً من أن يستطيع عقل الإنسان أن يحللها . فالإنسان لا ينظر إلا إلى بضع من حاجات البشر ويجهل الباقي . وبهذا يصيب جوانب الإنسان المهملة حيف عظيم . وهذا يحطم استقرار الحياة فيتحرك رقاصها إلى أقصى الطرف الآخر . ثم يأتي بعد ذلك ردّ فعل مرة أخرى ، فإذا حاجات الحياة التي كانت قد حرمت من نصيبها الذي تستحقه تستأثر وحدها بكل اهتمام البشر وتنال درجة من الاهمية لا تستحقها. وتتكرر نفس عملية ردّ الفعل . وبهذا تخيب الإنسانية في مسعاها لكي تجد الحد الوسط اللازم لتقدمها. فهي تتأرجح بين النهايتين المتطرفتين وبين هذين يوجد (الصراط المستقيم) الذي أوضحه الله تعالى . وهذا وحده هو الذي يؤدي بالإنسانية إلى طريق الفلاح في هذه

الدنيا وفي الآخرة . وكل السبل الاخرى تؤدي بها إلى الضلالة والهلاك. لقد قاد المفكرين الحديثين جهلهم المحض إلى أن يعتقدوا بـأن الاسلوب الديالكتيكي هو الطريق الطبيعي الذي تتقدم به الإنسانية الآن . إن الصراع بين الفرضية ونقيضها لا يؤدي إلى تقدم ، وإنما هو ضربة القدر القاصمة التي أصابت البشر جزاء أعمالهم السيئة . فلقد مرت قافلة البشر مراراً بالصراط المستقيم ولكنها لم تتخذه لها سبيلا . ويمكننا أن نشرح العملية كلهـــا بالمخطط التالي :



يفهم المرء مما جاء به القرآن أن الوحدة الواضحة في الدراسة التاريخية ليست الشعب ولا البلاد ، وإنما جماعة معينة من البشر

تسمى (ملة) . فغير المسلمين كافة ينتمون إلى ملة واحدة دون النظر إلى زمان أو مكان . وكذلك مسلمو كل العصور وكل البلدان يكونون مجموعة اجتماعية واحدة . إن تاريخ الإسلام هو تاريخ الصراع بين قوتين في العالم، هما الشر والخير، وهو الصراع الذي بدأ مع مولد أول رجل أغواه الشيطان . وهذا الصراع يرمي إلى تقوية شخصية المسلمين لكي يستطيعوا أن يستخدموا الصفة التي وهبها الله إياهم لكي يزيدوا من سرعة نشاطهم الخلاق وفقاً لأوامر الإسلام . لذا فإن ملة الإسلام والأمم غير المسلمة قوتان متضادتان في هذا العالم كانتا دائماً في خصام ونزاع . وإن على ملة الإسلام أن تعتبر نفسها مسؤولة عن كل ما يحدث من حولها ، وأن تجاهد من أجل إقامة الحق وإزهاق الباطل في كل حين، وفي كل سبيل من سبل الحياة الإنسانية. فالحق أن الكفر لم يكن قط ولن يكن أن يكون يوماً ما صديقاً للإسلام. وكلما حدث أنْ وَهَنَ نشاط عِدائه للإسلام لم يكن السبب استحساناً لما جاء به القرآن ، وإنما ضعفاً في حضارة العالم الإسلامي .

وبعد هذا البحث نريد أن نجد الأسباب التي تؤدي بالأمم في هذا العالم إلى طريق المجد ، والأسباب التي تجلب لها الدمار . إن من الصفات ما إذا نمته الأمم في أبنائها نالت السيطرة والسيادة على أراضيها ، وإذا فقدته تردّت إلى الحضيض . فما من أمة يمكنها أن تزعم أنه ما من أحد يستطيع أن ينزلها من كرسي السلطة والسيادة في بلادها بحجة أن هذه البلاد التي تعيش فيها

أرض ورثتها عن أجدادها ، فالله سبحانه لا يقر هـذا الزعم ، بل ينظر إلى هذه الامة التي أتيح لهـا أن تحكم أهي قائمة بالحكم بالحق أم بالجور والظلم . فـإذا كانت طاقات الامة موجهة نحو الخير سمح لها بأن تزداد قوة إلى أقصى حد ، فإنها بذلك تعطي الفرصة لكي تعرض قيمتها الحقيقية ، وبذلك تنفع العالم كله. أما الامم التي ترتكس في السبات ، فإن طاقاتها الخلاقة تغدو عقيمة وتلجأ إلى الظلم والطغيان وتنفق موارد الارض التي في قبضتها على إفناء البشر بدلاً من أن تنفقها على إسعادهم ، وهـذه الامم تحرم السلطة والنفوذ ، إذ أن سم الفوضوية القاتـل ينخر في كيانها السياسي ، وفي مدنيتها وحضارتها فتهوي كما يهوي بيت من ورق . ونريد الآن أن نجد الصفات التي إذا ربّتها الامة في أبنائها قادتها إلى خير مصير .

« والعصر ، أن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

إن من يلقي نظرة علىصفحات التاريخ حتى ولو كانت نظرة سطحية يقر بأن العقيدة الخفية التيتحملها أية أمة فيمثلها الاعلى تقودها إلى طريق المجد، إن هذه العقيدة وحدها هي التي تضفي وحدة علىالشكل الملون لحياتها المتعددة الجوانب وتجعلها تستمر بتقدمها. وحين ينهمك الافراد في صخب الدنيا وضوضائها وحين تمزقهم الاهواء المتضاربة ، فـإن المثل الاعلى يجمع بينهم ويوقظ عزائمهم ويحفظ قواهم من أن تتبدد . لذا فإن الصفة الاولى ذات

الخطر الاكبر التي لا بدّ للأمة أن تنميها في نفسها لكي تتقدم هي أن تضع أمامهـا مثلاً أعلى ثم تشرب نفسها حباً مفرطاً له . أن التطلع إلى بلوغ المثل الاعلى يوقظ في الامة مـا فيها من الصفات الكامنة . لذا فإن قادة كل أمة تسير في طريق التقدم يلاحظون بدقة أن لا تكون نظرة اتباعهم إلى المثل الاعلى غير منبعثة من أعماق قلوبهم أو نظرة تردد ، بـل نظرة ملؤها العزم والجهد المركز ساعية إلى نيله بأسرع ما يمكن . يجب أن ينهمكوا في العمل لهدفهم في الحياة ، وأن لا يدخروا جهداً في أن ينموا في أنفسهم الصفات الخلقية والشخصية التي تؤهلهم لبلوغ هدفهم . إن الهدف هو غاية ما تحتاجه الامة السائرة في طريق التقدم وأنه ألف مطامحها وياؤها . فالامة التي لا هدف لها لا تستطيع أن تحرز تقدماً يعتد به . هذا أمر مهم جداً. لقد كانت العقيدة الراسخة في المثل الاعلى المظيم للإنسان دائماً صفة قوية محركة ومفجرة للطاقات ، ولم يقتصر نجاحها في الماضي على أن غيرت حياة الإنسان الشخصية كلها، بل نجحت كذلك في تغيير مصير أمم. فإن ما حققه العرب بزعامة النبي الكريم وقيادته الحكيمة القديرة أحـد الامثلة على ذلك . وإعادة بناء كيان روسيا السوفياتية أخيراً – سواء أقر المرء ذلك أم خالفه – مثال آخر على ذلك فكلاهما يبينان بجلاء كيف اضطرت قوى المعارضة الكبرى إلى أن تنحني تحت ضربات هؤلاء بمثلهم الاعلى بعزم وإخلاص . وإن لأبناء كل أمة دائماً رسالة تشجيع ، إن كانوا

مخلصين في اتباع غاية معينة . إن الأمم الميتة ليست ميتة بحكم القضاء أو بالفطرة . وأن الحب الذي يملأ القلب لمثل أعلى يمكن أن يولد طاقة تجعل الأمة تبذل جهداً للوصول إلى هدفها لا تستطيع حتى النجوم في أفلاكها أن تقف في سبيله .

أم الأعمال الطيبة التي يذكرها القرآن الصدق . فالإنسان كائن إجتماعي ، ولا بدّ له من أن يقيم علاقات مع أبناء جنسه . والأفراد لا يمكن أن يرتبط بعضهم مع بعض ارتباطاً وثيقاً بأواصر الحب إلا حين يكونون في كل أعمالهم صادقين . وإن الأمم التي تفقد هذه الصفة مقضي عليها بالسقوط، وأما الهيكل الإجتماعي الذي مادة بنائه الصدق فيستطيع أن يقف في وجه أعنف ضربات الزمن .

ذلك هو السبب في أن أنبياء الله كافة أكدوا تأكيداً شديداً على قيمته . وحتى في عالمنا اليوم نجد أن الأمم التي تفوق الأمم الأخرى في التجارة هي الأمم الصادقة في معاملاتها . إن كرامة الفرد أو الأمة تعتمد تماماً على هذه الصفة . وهي تؤثر تأثيراً بالغاً في كل من يتصل بهم الفرد اتصالاً شخصياً. لقد أكد الرسول الكريم تأكيداً شديداً على هذه الصفة حتى أنه طلب مرة من رجل فيه عدد من الآثام أن يترك أول ما يترك الكذب لأنه أبو الآثام . وقد ضرب هو نفسه أمثلة متعددة للصدق والنزاهة . حين أجمعت قريش أمرها على أن تقتله ، وكان على وشك أن يهاجر إلى المدينة ، في هذه اللحظة الحرجة ، أرسل في طلب

علي وأخبره بالأمر الإلهي وسلّمه كل ما كان في حوزته من الودائع لكي يسلمها إلى أصحابها . إن هذا العمل الذي قام به الرسول الكريم والذي يدل على النبل والتقوى ترك انطباعاً لا ينمحي في أذهان الأعداء . وقد أسر هذا العمل وحده قلوب أكثر قريش . وإن مما يتفق مع طبيعة الأشياء أن لا يكون هذا السبب أقل خطراً من الأسباب الأخرى التي أدت إلى اندحار المكيين في بدر . وحين جيء بقريش لتقاتله في بدر أحس أكثرهم بالعار لما يقومون به وقالوا : ويلكم ألنكم قد خرجتم لتقاتلوا نفساً كريمة حرص صاحبها على أن يؤدي إليكم أماناتكم الغالية حين كنتم محيطين ببيته تريدون قتله !!.. لقد كانوا دون ريب يحملون سيوفهم في وجه النبي وأصحابه ، ولكن قلوبهم لم تكن مع سيوفهم . فكانت هذه الحرب الداخلية أكبر عقبة في طريقهم ، فذابت قلوبهم قبل ما جاؤا إلى القتال بمدة طويلة . وأنه لمن العجيب أن هؤلاء الذين عزموا على تحطيمه هو وصحبه سقطوا صرعى قوته الخلقية .

أن الإخلاص مفتاح الشخصية الطيبة . وإن صرح الخلق الرفيع لا يبنى إلا على صخرة الإخلاص . وحين ينعدم الإخلاص فلا بدّ للكيان الإجتماعي أن ينهار . وكل شيء فيه طعم التصنع إنما هو عين الضعف .

والكرم كذلك مظهر أساسي للعمل الطيب. والتاريخ يشهد بأن كرم النبي حتى مع أعدائه فريد في ما سجله التاريخ . كان

عبدالله بن أبيّ عدواً لدوداً الإسلام ، وكان يقضي ليله ونهاره في الكيد للعقيدة ولا ينفك يحرّض أهـل مكة واليهود على سحق المسلمين ، ومع ذلـك فحين مات تضرع النبي إلى الله سبحانه أن يغفر له . وكذلك كان موقف النبي مع أهل مكة الذين عـذبوه وأصحابه عذاباً شديداً لا يوصف ، فقد عفا عنهم. لقد أثر كرم النبي هذا وعفوه تأثيراً عميقاً في قلوب أعدائه ، فلم يسعهم إلا أن ينضووا تحت راية الإسلام .

والشجاعة درّة أخرى لامعة جداً في شخصية الأمم الناهضة فهذه الأمم لا تسمح للخوف أن يصيبها لحظة واحدة . وقـــد ضرب الرسول الكريم أمثلة عديدة للشجاعة . فإنـه حتى حين كانت المكائد تحـــاك في مكة لقتلة ، كان يتجول ليل نهار غير خائف. وحين وقع جيشه كله في الكمين في غزوة أحد بدأ يصيح عالياً في جنوده أن يتغلبوا على اضطرابهم ويستعيدوا نظامهم.. ولم يكن يبالي بالخطر الذي يتهدد حياته هو .

والصفة الأخرى هي (التواصي بالحق) . والذي يعنيه هذا أن على الناس أن يكونوا في إقامـة العدل عادلين تماماً مع المسلم وغـــير المسلم ، الصديق والعدو ، فجميعهم يجب أن يكونوا متساوين أمام القانون . ولقد أكد القرآن على هذا في مكان آخر بقوله : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، أعـــدلوا هو أقرب للتقوى» إن صفة إقامة الحق هذه هي الشيء الذي ينقص أمم العالم اليوم نقصاناً فظيعاً ، وهذا النقص هو الآ فة التي تنحر

في عروق الحياة في العصر الحديث .

إن دول هذا الزمان لا تنظر إلى شيء غير مصالحها الخاصة المتغيرة ، ولا تفكر هل إن كان كفاحها من أجــــل ضمان تلك المصالح له ما يسوّغه أم لا. وليس لديها من مقياس تفرّق به بين الحق والباطل غير الفائدة المادية. وعلى أساس هذا المقياس يبنون سياستهم الخارجية والداخلية . وواضح أنه حين ينعدم المقياس المجرّد للقيم المعنوية تكون للجماعات المختلفة من الناس نظرات متباينة جداً بشأن ما يكوّن أفضل مصالح الأمة . ولهــذا فإن المصلحة الشخصية وحدها تستطيع أن توجه سلوك الامم. وهذا أمر لا مفر منه ما دام التمييز بين الحق والباطل ، وبين ما يجب أن يعمل وما يجب أن يترك قــد تُرِك لرحمة مصلحة الفرد أو الجماعة ، وبكلمات أخرى قد ترك لأهواء الناس المتقلبة . فـإذا أقررنا بأن هذا وضع طبيعي لشؤون البشر (وبذا نعتبره وضعاً مرغوباً فيه) ، فمعنى ذلك أننا أقررنا بـــأن كلمتي (الحق) و (الباطل) ليس لهما معنى دائم بحد ذاتهما ، وإنما تعيّن معنيهما مصلحةُ الوقت والظروف . لذا فليس لنا من اختيار غـــير أن نرفض وجود أي واجب خلقي كهذا – لأن الواجب الخلقي لا معنى له إن لم يتصوره المرء شيئاً مطلقاً .

لذا فـــإن المصلحة الشخصية وحدها يمكن أن تقودنا في تخطيط شؤوننا . والمصلحة الشخصية اصطلاح نسبي « إن مـا يكون من مصلحتك ليس شرطاً أن يكون من مصلحتي (وهو

اعتيادياً ليس من مصلحتي) ، وينتج عن هذا إن مصالحنا يجب أن تصطدم في نقطة ما » [١] .

هذا ما يحدث في عالمنا اليوم، وهذا هو أكبر أسباب انحلال نظام العالم الجديد . فالعدل والقسط مفقودان إلى حد بعيد . وإن قوانين العدالة موضوعة لخدمة المصالح القانونية لبعض الأمم . إن نبي الإسلام قد أمر دائماً في وصاياه لقادة الحملات على الأعداء والمغيرين من القبائل والأمم أن «لا يتعرضوا للرجال المعتزلين في الصوامع ، ولا يعتدوا على امرأة أو يؤذوا رضيعاً أو مريضاً في فراشه». واقتدى أبو بكر بالنبي فقال: « يا يزيد اجتهد في أن تلزم الحق والعدل في أعمالك ، لأن من لم يسلك هذه الجادة لم يلق النجاح الذي يؤمله » [٢] .

---

(١) Muhammad Asad, Arafat, July 1947, p. 265

(٢) Syed Amir Ali ، المصدر السابق ، ص ٨٦ . وتجد نصاً مشابهاً في ص ١٠١ من الترجمة العربية لعمر الديراوي المطبوعة في بيروت عام ١٩٦١ بعنوان 'الاسلام' تاليف سيد أمير علي . وقد ذكر المترجم في حاشية الصحيفة المذكورة : « هذا هو معنى النص الذي يورده ابن هشام . أما النص نفسه مقتبساً عن الخضري صفحة ٢١٤ فهو « اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالاً في الصوامع معتزلين، فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا إمرأة ولا صغيراً ولا بصيراً فانياً ، ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناء ، وكان ذلك في غزوة مؤتة » .

وكتاب الخضري الذي يشير إليه الاستاذ الديراوي هو « نور اليقين في سيرة سيد المرسلين » تأليف الشيخ محمد الخضري ، الطبعة السادسة عشرة ، القاهرة ، ١٩٦٠ . (المترجم)

إن هذه الصفة التي هي إقامة الحق دوماً لم تكن أقل تأثيراً في رفع المسلمين إلى قمـــة المجد . لقد قال الرسول الكريم حق لابنته فاطمة : « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ».

والصفة الأخيرة هي الصبر والتحمل .. وهي ليست أقل خطراً من سابقاتها . لقد أظهر التاريخ كله أن الأمم التي تربح في صراع البقاء هي الأمم التي تتصف بالشجاعة والجد والذكاء . والأمم التي من صفاتها الخمول والهلع والطيش نصيبها الاندحار. وأنه لخطأ كبير أن يقال ما أسعد الامة التي لا تواجه أية مصاعب أن الامم التي تتقدم هي وحدهـــا الامم التي تجرأ على مجابهة الخطوب وتحرز الانتصارات الباهرة حـــتى لو أعاق سيرها الاخفاق ، أما الذين يقنعون بالركض بروح متخاذلة ، فـــلا يستطيعون أن يحرزوا أي تقدم . فهم يعيشون في غبش رمادي لا يعرف النصر ولا الاندحـــار . أن المحن والخطوب أهم اختبار وخير محك لإخلاص الناس .

لقد كان لصبر الرسول وأصحابه وتحملهم أثر كبير في نجاح الرسالة . إن مواجهة مصاعب الحيـــاة ببالغ الشجاعة والجرأة ، إنمـــا هي ميدان تدريب تربّى فيه فضائل الثبات الذي هو صفة أساسية من صفات الأمة الحية. وما لم تكن الأمة محاطة من جميع الجوانب بعقبات كثيرة ، وما لم تعترضها الصعاب ويلتبها البؤس فإنها لن تستطيـــع أن تنمّي ما فيها من قوى كامنة . إن النباتات التي تبقى في عالمنا هـــذا هي النباتات التي تستطيـــع أن تصمد

للرياح الهوج .

يقول القرآن الكريم مرة أخرى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زَبَدَاً رابياً ، ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حليه أو متاع زَبَدٌ مثله – كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزَبَدُ فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال » .

سورة الرعد (١٧)

لقد بيّن القرآن الكريم بأسلوب الكناية أن الأمم التي في بقائها فائدة للبشر هي وحدها التي تبلغ قمة التقدم والمجد ، لذا فالواضح أن الذين يبقون ويصمدون لأشد ضربات الزمن هم الذين وهبوا المشاعر الرقيقة تجاه بني البشر ، الذين لم يستسلموا لحياة الترف ، ويستطيعون أن يتحملوا كل أنواع المصاعب من أجل إخوانهم البشر . إن هذا المبدأ شامل تماماً ، حتى أنه لينطبق على كل سبل الحياة الإنسانية .

ثم يزيد القرآن الكريم ذلك أيضاحاً بقوله : « زُيّنَ للناس حبُ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرْث . ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل : أأنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد . الذين يقولون ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار .

الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ».
سورة آل عمران (١٤ — ١٧)

هذه الآيات تعدّد بعض ما يستغرق انتباه الإنسان مما في هذا العالم ويحرفه عن الصراط السويّ. وبتعبير آخر، تسيطر على أغلب البشر (غرائز التملك) فتغدو الغرائز المبدعة ضعيفة جداً إن لم تختلف تماماً. فحين تسيطر غرائز التملك عند إنسان ما يتجه نشاطه كله وجهة واحدة.. هي الحصول على وسائل الراحة المادية، فلا يستطيع عقله أن يفكر في شيء مما وراء ذلك. وتأتي أيام في أثر أيام وهو مشغول بجمع المال. والخلق عنده، والعدل والصدق ليست إلا كلمات جوفاء لا فائدة لها في الحياة العملية، غير أنها مفيدة إن ساعدته في الحصول على المزيد من المال، أما إن لم تساعده في هذا فهي غير مفيدة قط. لذا فإن مصير كل قواعد السلوك أن يلقي بها عرض الحائط إن هي وقفت في طريق التقدم المادي. وحب المال يرافقه حب القوة والامتياز. إن ما يرغب فيه الارستقراطيون لا يقتصر على امتلاك المال، بل كذلك أن يتعداه إلى إبقاء الآخرين تحت نير الفقر المدقع.

وبهذا يكون المجتمع كله قد انشق فصار طبقتين متميزتين، أصحاب المال، والذين لا مال لهم. فأصحاب المال يملكون الكنوز ويسيطرون على شؤون الحكم أيضاً، والذين لا مال لهم يحرثون الأرض ويعملون في المصانع فلا يكادون، بالجهد الشديد المستمر، ينتزعون من موارد هذا العالم قوتاً يبقيهم أحياء.

والأغنياء يمسون بليدي الإحساس ، فينظرون إلى كل هـــذا الطغيان والظلم بلا مبالاة . ورجال الدين، إن وجدوا، ينظرون إلى هذا الجور ، ولكن إحساسهم لا يتحرك قط ، فهم قانعون بمجرّد إلقاء خطب تخرج من الشفاه فقط، وحث الناس على عمل الصالحات ، ولكن لا يفعلون شيئاً من الأمور العملية ، فهم إما أن ينزووا في صوامع أو يصبحوا آلة بيد الارستقراطيين ذوي الخلق السيء يفرضون بها الأخطاء على الفقراء المساكين ، فيغدو الدين طقوساً وشعائر — أي مجرّد حيلة للنجاة في الدار الآخرة.

ومن هنا تكون الفوضى الخلقية المرعبة التي تولد من العذاب الذي لا يوصف والظلم الذي لا يطاق في المجتمع . أن هـذه الظروف تعمل كالمعول في أسس الكيان الإجتماعي، ولا تستطيع الأبهة والبهرج في ظاهر حياة الأمة أن يعوضا عن هذا الضعف، فيصيب الأمة كلها الدمار . لقد سجل القرآن حياة أمم كثيرة غرّها متاع الحياة الدنيا ولم تفكر في ما وراء ذلك ، وجعلها هذا السعي المندفع وراء المال لا تبالي قط بكل القيم النبيلة لحياة الإنسان ، فغدت وحوشاً بكل معنى هذه الكلمة . ما من شك في أنها قد أحرزت شيئاً من التقدم إلى مرحلة ما .

ولكن حـــين استنفدت طاقاتهم الخلاقة أمسوا خاملين ، وانقلب كثير من فضائل حضارتهم المادية رذائل . وأقحمت الأمة كلها في انفجار غـــير مألوف من الحروب والثورات والفوضوية وسفك الدمـــاء ، وفي فوضى إجتماعية وخلقية

واقتصادية وسياسية وفكرية. يصف القرآن الكريم إحدى هذه الأمم (قوم عاد) فيقول :

« أتبنون بكل ريع آية تعبثون ، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ، وإذا بطشتم بطشتم جبارين » .

سورة الشعراء (١٢٨ — ١٣٠)

وكانت الأمة التي خلفت عاداً ثمود. وكانت كذلك منغمسة في ملذات الحياة ، وإن استعراضاً سطحياً لحياتها اليومية يكفي لأن يقنع المرء بأن هذه الأمة قـــد عميت عن كل ما هو نبيل أو فاضل :

« أتتركون في ما ها هنا آمنين ، في جنات وعيون وزروع ونخل طلعها هضيم ، وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين » .

سورة الشعراء (١٤٦ — ١٤٩)

إن هـــذا التهالك على جمع المال ينخر المجتمع . فضمير أغلب أبنائه ملطّخ ، فـــلا يستطيعون أن يميزوا الحق من الباطل ، فيهوون في أعماق جحيم الفساد الخلقي ، فيتعاطون كل ما يخطر في مخيلتهم . وفي أحضان مثل هـــذه الأمة التي كانت في أحطّ درك من الانحطاط الخلقي ولد لوط . وخاطب لوط أمته :

« أتأتون الذكران من العالمين ، وتذرون مـــا خلق لكم ربكم من أزواجكم ، بل أنتم قوم عادون » .

سورة الشعراء (١٦٥ — ١٦٦)

ولكن الأحداث سارت في اتجاه خطير ، إذ بدلاً من أن يعملوا بنصيحة رسولهم ويقوّموا سلوكهم، وبّخوه على نصحه:

« قالوا : لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين » .

سورة الشعراء (١٦٧)

إن هذا الانحطاط في أخلاق الأمة لا يتجلى في ناحية واحدة من نواحي الحياة ، بل هو أمر شامل حتى أنه لا ينجو جانب من جوانب الحياة الإنسانية من تأثيره المفسد. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في أثناء مخاطبته أهل مدين :

« أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين ، وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين » .

سورة الشعراء (١٨١ — ١٨٣)

وهكذا ، فإن الانحطاط الخلقي بين أبناء الأمم هو الذي يسبب سقوطها . ولا ينقذها ازدهار قوتها العسكرية . وحين يكون انحلال خلقي يصبح النسيج الإجتماعي كله وقوداً يغذّي لهب الخراب الذي يبتلع كل شيء . إن هذا القانون ينطبق على العالم كله . كتب مؤلف كتاب (تاريخ المدنية الحديثة) فيأثناء بحثه في أسباب سقوط الامبراطورية الرومانية قائلاً : « إن جمهرة الموظفين ذوي الامتيازات لم تقم إلا بتقليل عدد دافعي الضرائب وزيادة النفقات . وازداد عبء الضرائب أكثر وأكثر

على الطبقات التي تقل عنهم غنى . ولم يستطع موظفو البلديات أن يسدوا النقص حتى بالتضحية بأموالهم الخاصة ، فتدهوروا هم أنفسهم، فزادوا بذلك طبقتي الفقراء وعبيد الأرض .. وتلاشت الوطنية . لقد كان شعار الحكم في روما ضمان السلام ورخاء العالم . وحين ذهب السلام والرخاء لم يبقَ من سبب للإخلاص لروما.أن لقب (روماني) الذي أصبح عاماً منذ زمن (كاراكالا) فقد كرامته وغدا لا يضمن الحماية . لذا لم تنظر الولايات باستياء إلى مجيء سادة جديدين فهم لن يكونوا أقسى عليها من روما نفسها » .

« ونظير كل هذا البؤس كان يتحكم في القصور ترف لم يسمع بمثله ، ومواكب من الخيل والعربات الفارهة والمهرجانات التي لا تنتهي ، وألعاب سركس ومنازلات المصارعة مما كان يشاهده حتى المسيحيون رغم منع الكنيسة . ولقد حوى المجتمع كل نقيض، مخاصمات المذاهب المسيحية ، والهجمات الأخيرة للفلسفة الوثنية ، والصنعة في شعر شعراء الانحلال ، والأساقفة ذوي الجد ... وآلاف الموظفين الذين يتملقون الأمير ، والأساقفة يداهنون أو يحذّرون ... لقد كانت الامبراطورية رومانية بالاسم فقط... إذ لم يبقَ من الدين القديم سوى أساطير هجرها حتى الفلاسفة » [1] .

---

(١) Docoudray, History of Modern Civilisation, pp. 36 – 37.

كتب بروفيسور ستانلي لين بول ، وهو يقرر أسباب سقوط امبراطورية المغول في الهند ، كما نقل ذلك سير و.و. هنتر أن الجنود الأبطال الذين كانوا في أول أيام الامبراطورية ونساءهم اللواتي لم يكنّ أقل بطولة منهم قد خلف من بعدهم خلف فاسدون من أولاد الاشراف ذوو نشأة رقيقة ناعمة . إن أجداد (اورا نغزيب) الذين انقضّوا على الهند من الشمال كانوا رجالاً وجوههم حمر تطفح دماً ويلبسون أحذية تغطي الكعبين ، أما الحاشية التي نشأ بينها (اورا نغزيب) ، فقد كانوا أشخاصاً شاحبين يلبسون النُقَب [1] . لقد خاض (بابر) مؤسس الامبراطورية كل نهر صادفه خلال ثلاثين سنة من الحرب ، أما النبلاء المترفون الذين كانوا حول الشاب (اورا نغزيب) فكانوا يلبسون ثياباً ذات طيات عديدة من أكثر أنواع الحرير الأبيض نعومة ويخرجون للحرب راكبين في هوادج » [2] .

وحتى في أيامنا هذه لا نجد سبباً لانهيار فرنسا أعظم شأناً من الكارثة الخلقية. وقد اعترف قادتها بذلك مراراً في الصحافة وفي الخطب العامة .

هذه الحقائق التاريخية صارخة جداً لا يستطيع أن ينكرها

---

(١) جمع نقبة ، وهي ثوب كالازار يشد كما تشد السراويل . (المترجم)

(٢) Stanley Lane - Poole, Mediaeval India, p. 413.

باحث نزيه . وهي تضع في الختام هذه الحقيقة : إن الفساد الخلقي في الأمة هو الذي يسبب انهيارها . هذا عامل عظيم الشأن.. وهو أصل الأسباب ومنه تتفرع كل الاسباب الاخرى.

يقول القرآن الكريم بكلمات صريحة قاطعة :

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

سورة الاسراء (١٦)

الخاتمة

أوضحنا في الصحائف السابقة الزوايا المختلفة التي دُرست منها ضروب النشاط الإنساني التي تحصل في المجموعات الإجتماعية وحُللت ثم استُخلصت منها نتائج وُضعت في شكل قوانين اجتماعية عامة . وقد قلنا أن الجماعات الإنسانية لا تخبط في أعمالها خبط عشواء ، بل تسلك سبيلاً واضحة وتيمم شطر غاية معينة ، وإن لما تقوم به من أعمال في حياتها ، مهما بلغت هذه الأعمال من السعة والتنوع ، غرضاً ذا معنى .

ويرى شپينغلر في المجتمع أو الحضارة كائناً حياً يحيا حياة واحدة فقط ، وأن حياتها هذه مثل حياة الكائن الحي ، لها طفولة وبلوغ وهرم ثم موت لا مفر منه ، وأنها مثل الكائن الحي ، إذا ماتا فليس إلى أحيائهما من سبيل .

إن عملية النمو والانحلال الطبيعي هذه التي يمكن أن نسميها بحق النظرية العضوية تجعل حياة الإنسان قاتمة لا أمل وراءها .

وهي تعني أن القوة التي بهـا تقوم حياة كل حضارة ومجتمع قوة محدودة ، وأنها تُستنفَد لا محالة بمضي الزمن ، ولا أمل في إعادة الحياة إلى الحضارة والمجتمع بعد أن يكونا قد ازدهرا يوماً ما ثم عراهما الانحلال .

إن الخطأ في تفكير شبينغلر أنـه يرى في الحضارة والمجتمع كائناً حيـاً فقط ، ومن التحليل الأحيائي يستنتج أن كل مجتمع إنما يحيا حياة واحدة فقط ، ثم يموت موتاً لا رجعة بعده .

إن الحضارة أو المجتمع ليس كائناً حياً بالمعنى الذي يستخدم به هذا اللفظ في علم الأحياء ، ولذلك لا يستطيع قانون أحيائي أن يفسّر نموّه وانحلاله تفسيراً وافياً . لقد أظهر باحثو كاروبر وزوروكين [1] ، بمـا لا يقبل الشك أن « نظماً حضارية أو اجتماعية أو مدنيات عظيمة كثيرة ولدت ثم ماتت ثم ولدت ثم ماتت كثيرة،وأنها ارتقت اجتماعياً وفكرياً وسياسياً ثم انحطت مراراً كثيرة في حياتها التي لم يكد يكون لطولها حـد ، ولم تقتصر على ولادة واحـدة وموت واحد ، ولا على حقبة واحدة للازدهار ثم حقبة واحدة للأفول » .

ثم أن ظهور حضارة جديدة أو جماعـة اجتماعية جديدة في التاريخ لا يعني ميلاد وحدة كاملـة مثل الكائن الحي ، ولا يعني

---

(١) The rescarchers of Karober and Sorokin

موتها إنحلالاً أو فناءً تاماً . إن الحضارة والجماعات الاجتماعية تشبه مياه موجات مختلفة إذ تختلط ، فهي لذلك لا تولد قط كما يولد الكائن الحي ولا تموت كما يموت ، وإنما تنبع من عيون وأنهار حضارية مختلفة ، وتتعاظم أحياناً حين تأتيها تيارات من المدنيات الأخرى ، وتجف أحياناً حين تقل الطاقة المبدعة ، ولكنها تنبثق مرة أخرى في صورة حركة قوية ذات تعبير حضاري . إنها قد تمر بدورات عديـــدة من سعد ونحس ، ولكنها لن تمحى من الوجود قط .

أن الحضارات والمجتمعات تعيش بأرواحها الخالدة التي لا تموت . ولكن شپينغلر تجاهل هذا الأمر وأقام صرح نظريته على فرض مغلوط هو أن الشكل الظاهري للمجتمع ، والحضارة هو الذي يمثل حياتها ، وانحلال شكله هو نهايته المقدرة . بيد أن الأمر على خلاف ذلك . فالأشكال الاجتماعية والحضارية إنما هي التعبيرات المرئية عن النظرات المختلفة للحياة الاجتماعية ، وهذه باقية إلى الأبد . نعم انها تظهر أحياناً وتتوارى أحياناً أخرى ، ولكنها لا تمحى من الوجود .

مات الرومان والإغريق وتهـــدم ما شادوه في المجتمع وفي مجال السياسة ، ولكن ما آمنوا به من قيم مادية في الحياة ماثل أمامنا قـد بُعث في حياة أوروبا الاجتماعية الحديثة بعثاً تاماً . ومن هذا يتبين أن نظرة شپينغلر ضيقة ومرتبطة بالأرض .

ولقد وسّع آرنولد توينبي قاعدة التاريخ الفلسفية بأن نظر

إلى المدنيات على أنها وحدات التاريخ الحقيقية ، ولم ينظر إليها النظرة التقليدية التي تقتصر على سيرة مجتمع أو أمة ما. وحاول أن يؤكد على ما للإنسان من ابداع ، غير أن رجوعه المتكرر إلى نغمة « التحدّي والرّد » التي تشعرنا بوجودها في مجال العمل كله ليست سوى « محاولة لصبّ حديد قانون الأجل المقدّر في مهجع المعتقدات التي عراها البلى» على حد تعبير فيلسوف كبير.

أمّا هيغل ، ففلسفة التاريخ عنده جزء من فلسفة (الروح المطلقة) ، والمشكلة التي تواجه من يتصدى لشرحها هي مشكلة تتبّع عمل العقل في مجال تجريبي معيّن . ذلك العقل يعمل في التاريخ – وفي هذا المجال كما في المجالات الأخرى ليس حقيقياً إلا ما كان موافقاً للعقل لأن أي شيء في الوجود ، إنما يمثل تجلّي روح العالم وافصاحها عن ذاتها . وهذا التجلّي ، إنما يحصل بالعملية الديالكتيكية . ولا يقف الديالكتيك في حكمه عند حدود الفكر ، وإنما يمتد إلى الحوادث بالترتيب الزمني ، لأن كليهما إنما تضمها جوانب من كيان واحد متكامل . ولما لم تكن الحقيقة الكاملة متمثلة في أي شيء سوى المطلق ، فهي نسبية إذن كأنْ يُرى في الشيء من حيث علاقته بالمطلق أن فيه من الحقيقة درجة أعظم أو أقل ، وبذلك يكون فيه درجة أعظم أو أقل من الحكمة أو الصدق تبعاً لذلك .

إن فلسفة التاريخ التي جاء بها هيغل تجعل المرء يتساءل ، هل أن الفلسفة التي توضع على هذه الأسس يمكن أن يستسيغها

التفكير الخلقي؟ ولكنه لم يستطع أن يأتي بجواب مقنع على هذا السؤال وتحاشى هذه القضية بمجرد القول بأن الوحدة الخلقية الصادقة ليست الفرد المجرّد ، وإنما الكائن الحيّ المعنوي ، وهو الدولة أو المجتمع الذي نشأ فيه ، وأن حقوق هذا الكائن الحي المعنوي ، وهو الدولة أو المجتمع، يجب أن تعلو على حقوق الفرد المجرّد . وهو لا يرى في هلاك الفرد من أجل خير « الكل » أمراً منافياً للخُلق. وفي فلسفة هيغل عذر ومسوّغ لكل ما في التاريخ من مظالم ، والسلطة التي هي قوة غاشمة مجرّدة تجعلها فلسفة هيغل معبوداً، وأما الفرد ذاته فتفقده هذه الفلسفة كيانه المستقل تماماً . ومعنى ذلك أن تصير روح الإنسان وخلودها بلا معنى ، وأن يُعَلَّمَ الإنسان أن لا يلتزم بالفضيلة ، وإنما أن يحرص على أن يبرهن على أنه دولاب مُسَنَّن جيد في آلة المجتمع المعقدة الهائلة ، وبذلك يفقد الإنسان صلة بالله ويحرم نفسه مما للحياة من قيم رفيعة ويتعلّم أن يعيش بلا إرادة شأنه في ذلك شأن آلة في الكيان الإجتماعي .

أما ماركس فقد رفض، أو ظن أنه قد رفض، فلسفة هيغل المثالية برمتها ، واحتفظ بنهجه الديالكتيكي، غير أنه جرّده من شكله الغامض المتعلق بما وراء الماديات ، وهذا ما يختلف به نهجه عن نهج هيغل . فماركس يرى أن السبب الأكبر لما يحصل في المجتمع من تغير ليس كامناً في أفكاره ، وفي الحق الخالد والعدل الإجتماعي ، وإنما في تغير أساليب الإنتاج والتبادل .

« لذلك فالانتقال من مرحلة من مراحل التطور الإجتماعي إلى أخرى لا يكون لأن مبادىء عقلية استجدت أو لأن أفكاراً جديدة عن الحق والعدل ظهرت ، لأن هـــذه متعلقة بالكيان العلوي ، والذي يجعل قبولها ممكناً هو أن التغيرات التي تحصل في قوى الإنتاج توجد بيئة تجعلها تبدو التعبير الطبيعي عما صار الناس يرغبون فيـه » . إن النظرية المادية التاريخية تميل إلى أن ترى في قادة الفكر والعمل مجرّد حمَلةٍ للقوى الإجتماعية التي هي في أساسها إقتصادية .

فلسفة التاريخ هـذه تختلف عن المبادىء الأخرى التي تعالج ما يحصل في العالم من تغير إجتماعي إختلافاً جوهرياً . فماركس يعتقد أن الحافز المحرّك الأكبر للمجتمع البشري المسؤول عن كل ما يحصل من تغـير في وعي الإنسان وفكره ، أو الذي يسبب حـــدوث النظم الإجتماعية المختلفة ، والمنازعات ليس منشؤه الفكر أو الفكرة أو (عقل العالم) أو (روح العالم) وإنمـــا الظروف المادية للحياة ، لذلك فأساس تاريخ البشر مادي تماماً . والظروف المادية للحياة هي الأسلوب الذي يصوّر بـه البشر ، باعتبارهم كائنات إجتماعية ، حياتهم المادية ويكسبون معيشتهم وينتجون ويوزعون ويتبادلون البضائع اللازمة لقضاء حاجاتهم ، مستعينين مع هـذا الأسلوب بصفاتهم البدنية ومواهبهم العقلية والطبيعة المحيطة بهـــم . وأهم أنواع ظروف الوجود المادية هو إنتاج الوسائل الضرورية للحياة . ويمكن القول بكلمات بسيطة

أن ماركس يرى أن أسلوب الإنتاج هو الذي يقرر الكيان العلوي الكامل للمجتمع ، شكله الإجتماعي والسياسي ، وقيمه الدينية والحضارية ، بل فكره وآرائه . والنظرية الماركسية تنفي أي وجود للنوازع العليا في الإنسان وتجعل منه مجرّد قشة لا حول لها ولا قوة أمام التيارات العنيفة للقوى الإقتصادية .

ولا ريب في أن الظروف الإقتصادية تؤثر على المجتمع غير أن التاريخ لا يؤيد أن الكيان الإجتماعي كله ما هو إلا إنعكاس لأساليب الإنتاج ، فالنسيج الإجتماعي يتألف من أشكال مختلفة من الأفكار والآراء والعادات والتقاليد .

وفضلاً عن ذلك ، فما من سبب يوجب الاعتقاد بأن الجنس البشري لا بدّ أن يرتقي بتأثير ضغط القوى الإقتصادية . أن مُوحّدَ الفرضية ونقيضها ليس شرطاً أن ينتج عنه نظام أرقى للعالم. فلقد تحسنت وسائل الإنتاج تحسناً مذهلاً، وازداد النشاط الإنتاجي زيادة غير معتادة ، ولكن ما من أحد يستطيع أن يدعي بأن الموحّدَ الموجود الآن هو خطوة متقدمة أكيدة في كل جوانب حياة الإنسان . لقد حُرم الإنسان الحديث من حرية الإرادة وهشم الفرد تحت ثقل النزعة الجماعية الشديد ، وحُرم راحة الفكر والحياة الروحية الداخلية .

ثم إن في التفسير الماركسي للتاريخ مسوّغاً وعذراً لكل طغيان وظلم ، شأنه في ذلك شأن تفسير هيغل ، وحين يُعلّم المرء الاعتقاد بأن كل شيء في هذا العالم ، إنما هو نتيجة طبيعية

للظروف الاقتصادية ، فإنه لا يستطيع أن يَعُدّ شيئاً متفقاً مع الأخلاق ، وآخر مخالفاً لها وشيئاً عدلاً وآخر باطلاً ، فقد حَلّ المجتمع الصناعي الحديث أشكال التسلط السياسي القديمة ، ولكن أنظمة الحكم الطاغية التي نشأت على أنقاضها فاقتها في الوحشية والظلم . فعدم المساواة المتأصل في ملكية الأرض قد أزيل غير أن عدم المساواة الأكثر حركة الذي يتسم به المجتمع الفني صار أكثر خطراً على الأمة من الأشكال الأكثر استقراراً التي تتسم بها السلطة الجائرة . هذه حقائق واضحة ملموسة لا يستطيع أن ينكرها أحد وهي تكذب الدعوى بأن المُوَحِّد يجمع في ذاته ما في الفرض والنقيض من عناصر جيدة ومفيدة جمعاً رائعاً . والشيوعية لم تستأصل أي فكرة رئيسة من أفكار المدنية الرأسمالية البورجوازية ، وإنما اقتصرت على تشجيع الأنانية الجماعية للقضاء على الأنانية الفردية . لقد قبلت بالمقاييس الفاسدة التي تضع الاقتصاد في المرتبة الأولى وتجعل الولاء للضمير الخلقي والحق والله أموراً سخيفة منافية للعقل .

ويتفق فلاسفة التاريخ الغربيون ، على ما بينهم من اختلاف كبير في الرأي ، على النقاط التالية :

(أ) ان الذات الفردية مقيدة بالمكان والزمان وليس لها حرية إرادة .

(ب) أن اللاشخصية الجماعية ، وحدها هي الواقعية ، وأن الوجود المستقل للإنسان الفرد ما هو إلا وهم .

(ج) أن الذي يقرر نظرة الفرد والجماعات التي في المجتمع هي الظروف المادية لا ذاته هو .

(د) ما من حق خالد ولا معيار أخلاق وعدل مجرّد، فهذه أفكار تتأثر بالزمان والمكان ، ولذلك مـا من قانون ولا أمر يصدر إلى البشر يمكن أن يعد صحيحاً صحة دائمة وشاملة .

أما الإسلام فرأيه في فلسفة التاريخ مختلف تمام الإختلاف . لا شك في أنـه إذ يدرس البشر لا يغفل الظروف المادية التي تحيط بالإنسان في حياته ، ولكن مركز دراسته هـذه هو الإنسان . فهو يمنح الإنسان حرية في الإرادة ويرى فيـه أداة قوية لمحاربة الظروف المادية التي يعيش فيها وأن له من المقدرة ما يكفي لصياغة مصيره بتأثير ذاتـه . وجسمه محدود ومقيد بالبيئة المادية التي هو مُسيَّرٌ فيها غـير أن ذاته غير محدودة بالزمان ولا بالمكان ، وهي قادرة على تجاوز حواجز العـالم المـادي . لذلك فالإسلام لا يرى أن الظروف المادية هي التي تصوغ شكل مصير الإنسان ، وإنما ذات الإنسان هي التي تقرر شكل حياته الإجتماعية ونمطها ، وإن ما يأتيه الإنسان من عمل في المجتمع ليس تجلياً للروح المطلقة ولا إنعكاساً لأساليب الإنتاج وإنما تعبيراً عن ذاته .

ثم ان الإنسان من حيث هو إنسان لم يحصل له من تغير ، وحوافزه هي هي، ولذلك فمشكلاته ومشكلات الإنسان الذي عاش في عصور ما قبل التاريخ واحدة من حيث الجوهر وأن

تغير حجمها ، وأغلب الظن أن عواطفه ومشاعر الفرح والكره والحسد عنده ذات شبه عظيم بمـــا كان منها عند الإنسان الذي عاش في الماضي السحيق .

والإسلام إذ يرى في الإنسان هذا الرأي يحث البشر على أن يستفيدوا من دروس الماضي، وتكون لهم منه، كما يقول القرآن، (عبرة)، أي أن ينتقل المرء من أحوال زمنه إلى أحوال الأزمان الماضية ، ويستخلص منها دروساً بالنظر في ما أدت إليه تلك الأحوال في الماضي. هذه النظرة للتاريخ لا تفيد إلا عندما تبقى مشكلات الإنسان على ما هي لا تتغير لأن طبيعة المشكلات إذا تغيرت كانت دراسة الماضي طلباً للعبرة عملاً عقيماً لأنها لا تفيد في الزمن الحاضر فائدة عملية .

ومن هنـــا نهتدي إلى حقيقة أخرى من حقائق التاريخ . فنحن حين يستقر بنا الاعتقاد بأن طبيعة الإنسان ذاتها لم تتغير نستطيع أن نستنتج بيسر أن الخالق الذي صاغ فطرة الإنسان لا بدّ أنه قد وضع سنناً تسيّرها كما يجب ، وهذه السنن الإلهية يجب أن تكون صالحة صلاحاً شاملاً لأنها غير مقيدة أو متأثرة بالزمان أو المكان أو الأحوال المادية المحيطة ، وإنما أريد بها أن توجه فطرة الإنسان التي لا تتغير . لا ريب في أن الإسلام قد أوجد القواعد التي بها يقوم نظام إجتماعي خال من الاستغلال يؤدي إلى أن تنمو حياة الإنسان العقلية والروحية نمواً سليماً ، ولكن هذا الدين الذي أنزله الله يهتم اهتماماً بالغاً بأحداث تغيير

خلقي وروحي في نفس الانسان حتى يتجلى هذا التغيير في الحياة نظاماً خلقياً واجتماعياً جيداً .

أن الاسلام لا يتصور أن القوى الاقتصادية أو المادية وحدها يمكن أن تحدث أي تغيّر أو تحوّل في المجتمع البشري ، وإنما تغيُّر ما في نفس الانسان هو الذي يتجلى في التغيّر الذي يحدثه في ظروف البشر الخارجية . لذلك يمكن أن نقول صادقين ، أن فلسفة التاريخ الاسلامية هي تفسير التاريخ المعنوي لأنها ترى في الانسان كائناً معنوياً . نعم أن الظروف الخارجية تؤثر في حياته ولكن العامل الحاسم هو ذات نفسه فهي إما أن تهديه إلى سبيل الفلاح بأن توجد عنده استشعاراً لوجود الله فيعمل بمــا يرضيه سبحانه أو تهديه إلى سبيل الخسران والدمار ، إذ يحاول عبثاً أن يتغلب بما أوتي من قوة على شعوره بعدم الأمن ، وبأن يخفي قصور ذكائه بما يزعمه من احاطة علمه ، وبكلمة موجزة ميله إلى أن يقيم من نفسه إلهاً لنفسه .

المراجع

باللغات الانكليزية والعربية والاردية

Adam, Brooks, *The Law of Civilization and Decay*

Amir Ali, Syed, *The Spirit of Islam*

Andre, Maurois, *Why France Fell*

Arnold, Thomas, *The Legacy of Islam*

Barthold, V. V., *The Musalman Culture*

Bell, Clive, *Civilization*

Bergson, *Creative Evolution*

Berlin, Isaih, *Karl Marx*

Bohm-Bawerk, E. V., *Karl Marx and the Close of his System*

Burns, Emile, *What is Marxism*

Cole, G. D. H., *The Meaning of Marxism*; *The Common People*

Cowell, F. R., *History of Civilization and Culture (An Introduction to the Historical and Social Philosophy of P. A. Sorokin)*

Cowper Poways, *The Meaning of Culture*

Croce Benedetto, *Historical Materialism and the Economics of Karl Marx*; *Politics and Morals*; *What is Living and What is Dead of the Philosophy of Hegal*

Dobb, Maurice, *Marx as an Economist*

Ducondray, *History of Modern Civilization*

Eastman, Max, *Marxism, Is it a Science? Stalin's Russia and the Crisis of Socialism ; The Last Stand of Dialectical Materialism*

Engels, Friedrich, *Anti-Dhuring*

Federn, Karl, *The Materialist Conception of History*

Flint, Robbert, *A History of the Philosophy of History*

Gibbon, *The Rise and Fall of Roman Empire*

Gide, Charles & Rist, Charles, *A History of Economic Doctrine*

Gray, Alexandar, *The Development of Economic Doctrine*

Hakim, Abdul, *Islamic Ideology*

Hegel, G. W. F., *Lectures on Philosophy of History, translated by Sibree.*

Hilda, D. K. Oakeley, *History and Progress*

Hitti, Philip. K. *History of Arabs*

Hunt Carew, *The Theory and Practice of Communism*

Iqbal, Allama Mohammad, *The Reconstruction of Religious Thought in Islam*

Issawi, Charles, *An Arab Philosophy of History*

Joad, C E. M., *Modern Political Theory ; A Guide to Modern Wickedness.; Great Philosophers of the World ; Philosophy of Our Times*

Joseph R Strayer, *The Interpretation of History*

Khuda Bux, S , *Islamic Civilization*

Kidwal, M. H., *Women*

Lambek, *The Growth of Mind in Relation to Culture*

Laski, H., *The State in Theory and Practice*
Lenin, V. I., *The Essentials of Lenin* ; *The Teachings of Karl Marx* ; *State and Revolution*
Lindsay, *Karl Marx's Capital*
Maciver, R. M and Charles Page, *Society*
Mann, Heinrich, *Neitzsche*
Mannehem Karl, *Diagnosis of our Time*
Mandel Baum, *The Problem of Historical Knowledge*
Marx, Karl, *Capital ; Communist Manifesto ; Contribution to the Critique of Political Economy ; Class Struggle in France*
Matthews Shailer, *The Spiritual Interpretation of History*
Mazhar-ud-Din Siddiqi, *Marxism and Islam*
McTaggart, J. M., E., *Studies in the Hegelian Dialectic*
Mosley, A. C., *Text Book of Marxist Philosophy*
Muir Edwin, *Essays on Literature and Poetry (Chapter on Oswald Spengler)*
Mure, R. G., *An Introduction to Hegel*
Narain, Prof Brij, *Marxism is Dead ; Indian Socialism*
Neitzsche, *Thus Spoke Zarathūshtra*
Nordau, *Interpretation of History*
Paul, Tillich, *The Interpretation of History*
Plato, *Republic*
Rader, Melvin, *No Compromise*
Russel, Bertrand, *The History of Western Philosophy; The New Hopes for the Changing World ; The Practice and Theory of Bolshevism*
Sayyidain, K. G., *Iqbal's Educational Philosophy*
Schelegal, *The Philosophy of History*

Seligman, *The Economic Interpretation of History*
Selsam, Howard, *Socialism and Ethics*
Sheen. J. Fulton, *Communism and the Conscience of the West*
Sorokin, P. A., *The Crisis of Our Age*
Spengler, Oswald, *Decline of West (two volumes)*
Stace, W. T., *Philosophy of Hegel*
Stalin, J., *Dialectical and Historical Materialism*
Strachey, John, *The Theory and Practice of Socialism*
Tara Chand, *The Influence of Islam on Indian Culture*
Teggart, J. Fredrick, *The Process of History*
Toynbee, Arnold, *Civilization on Trial*; *Study of History*
Webb Clement, *A History of Philosophy*
Webb's Sidney and Beatrice, *Soviet Communism*; *New Civilization*
Zaki Ali, Dr., *Islam in the World*

MAGAZINES AND JOURNALS

Islamic Culture, Hyderabad, India
Arafat, Lahore, Ed. Muhammad Asad
The Voice of Islam, Karachi
Iqbal, Lahore
Islamic Literature, Lahore
Islamic Thought, Aligarh

علامه ابن كثير دمشقى : تفسير القرآن العظيم
علامه شهاب الدين سيد محمود آلوسى : روح المعانى
مولانا أشرف علي تهانوى : بيان القرآن
علامه شبير أحمد عثماني : فوائد القرآن
حضرت شاه ولي الله : حجة الله البالغه
علامه ابن خلدون : مقدمه
علامه محمد إقبال : ملت بيضا پر ايک عمراني نظر
مولانا أبو الكلام آزاد : ترجمان القرآن ، حصه اول و دوم
مولانا سيد أبو الأعلى مودودى : (الف) تفهيم القرآن، حصه
اول ، دوم ، سوم و چهارم
(ب) إسلامى تهذيب اوراس اصول ومبادى
(ج) بناؤ بگار
(د) تفهيمات ، حصه اول و دوم
(ر) تنقيحات
مولانا عبد الماجد دريا آبادى : تفسير ماجدى
علامه سيد سليمان ندوى : أرض القرآن
مولانا سيد أبو الحسن علي ندوى : (الف) مذهب و تمدن
(ب) انسانى دنيا پر مسلمانون عروج و زوال كا اثر
پروفيسر محمد مجيب : تاريخ فلسفة و سياسيات

ڈاکٹر یوسف حسین خان : روح إقبال
مولانا عبد السلام ندوی : انقلاب امم
مولانا أبو السلام نعیم صدیقی : تخریب و تعمیر
مظهر الدین صدیقی : (الف) إسلام کا نظریه تاریخ
(ب) هیگل ، مارکس اور نظام إسلام

المحتوى

تطلب جميع منشوراتنا من :

• دار القلم الكويت
شارع السور - عمارة السوق - بجوار وزارة الخارجية
ص.ب ٢٠١٤٦ هاتف ٢٥١٦٠٤

• الشركة المتحدة للتوزيع
بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
ص.ب ٧٤٦٠ هاتف ٢٩٥٥٠١